شرح رسالة القواعد الأربع

للإمام المجدد

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

فضيلة الشيخ الدكتور

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

شبكة الإمام الآجري

www.ajurry.com

المقدمـة:

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين.

نعم :

المتن: - المقدمـة-

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ. فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ.

الشـرح:

الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ- كان ناصحا للناس أعظم نصيحة في بيان التوحيد الذي خُلقوا لأجله وأُوجدوا لتحقيقه، والتحذير من الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ الذي هو أعظم الآثام وأكبر المُحرَّمات.

وتنوعت مصنفاته -رحمه الله تعالىٰ- في بيان التوحيد وتقريره والتحذير من الشرك وإبطاله، وبيان فساده وبطلان شُبه أهله، فألَّف في ذلك مؤلفات كثيرة نُصحًا للأمة وبيانًا للناس وإعذارًا وإنذارًا، فكان -رحمه الله- ناصحًا معلمًا مربيًّا موجهًا متمسكًا بكتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنة رسوله -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.

وكان -رحمه الله- في بياناته وتقريراته للتوحيد والسنة ينطلق في ذلك كله من كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنة رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، سائرا في ذلك علىٰ سَنَن الصحابة الكرام وتابعيهم

بإحسان، فهو ماضٍ علىٰ الطريق، علىٰ الأثر في الاقتفاء والإتباع لكتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنة رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ.

ولهذا كانت كتبه كلها قائمة علىٰ الدليل؛ قال الله، قال رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ.

لا يأتي بشيء من قِبل نفسه أو يُنشئ أمرا تكلفا من عنده، حاشاه وحاشا أئمة المسلمين وعلماء السنة أن يكونوا كذلك، بل كان -رحمه الله- في تقريراته وتأصيلاته وتقعيداته منطلقا في ذلك كله من كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنة رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ.

وقد تنوعت مصنفاته -رحمه الله تعالىٰ- في بيان التوحيد وتقريره والتأصيل له وجمع الشواهد والدلائل عليه من كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنة نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ.

وكان من عنايته -رحمه الله تعالىٰ- بهذا الباب العظيم هذه الرسالة الصغيرة الحجم الكبيرة الفائدة، التي لا يستغني عنها كل مسلم، فهي بحق رسالة عظيمة وكُتيِّب قيِّم في بابٍ هو أعظم الأبواب، وقد جمع -رحمه الله- في هذه الرسالة قواعد أربعة وذكر أدلتها من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسنة نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، فكان مَن ضَبط هذه القواعد وفهمها لا يلتبس عليه الأمر ولا تشتبه عليه الأمور ولا تنطلي عليه أضاليل أهل الضلال وأباطيل أهل الباطل.

فهي قواعد أربعة كبار عظيمة لا غنىٰ لأي مسلم عنها في باب معرفة التوحيد والشرك، والتمييز بين الحق الذي هو التوحيد والباطل الذي هو الشرك.

وأصبح معرفة التمييز بين التوحيد والشرك ضرورة ملحَّة ولاسيما في مثل هذه الأزمة المتأخرة التي لُبِّس علىٰ كثير من الناس في مفهوم التوحيد، وأُدخلت عليهم صورا من الشرك وأبوابا منه علىٰ أنها ليست مضادة للتوحيد ولا منافية له.

فمن أعظم الضرورات وأشد الحاجات التي ينبغي علىٰ كل مسلم ومسلمة أن يُعني بها: أن يعرف هذه القواعد العظيمة الأربعة الكبار التي قررها -رحمه الله تعالىٰ- ليميز بها المسلم بين الشرك والتوحيد، وحتىٰ يكون المسلم علىٰ بصيرة في دينه وعلىٰ بيِّنة من أمره وعلىٰ نور من كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وسنة نبيه -صَلَّوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.

وقد بدأ -رحمه الله تعالىٰ- هذه الرسالة كعادته في كتبه عمومًا ورسائله بالدعاء لمن يطلع علىٰ كتابه ويقرأ رسالته، ويدعو -رحمه الله- بدعوات عظيمة؛ دعوات جامعة تجمع للمسلم خيري الدنيا والآخرة. وهذا كذلك من نصحه -رحمه الله تعالىٰ- ومن شفقته علىٰ الناس عمومًا ليتبصَّروا في دينهم، وليعرفوا الحق الذي خُلقوا لأجله وأُوجدوا لتحقيقه، وليكونوا علىٰ حذر من الضلال والباطل.

بدأ هذه الرسالة (القواعد الأربعة) بقوله: « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » وهذه كلمة يُبدأ بها في الدروس والمقالات والكتب، وهي مفتاح يُبدأ به طلبًا لعون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وتوفيقه وتسديده.

فقولك: « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » هذه كلمة استعانة؛ تبدأ كلامك أو كتابك أو دخولك أو خروجك أو غير ذلك مما بسملت لأجله، تبدؤه بالبسملة طالبًا بذلك عون الله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا قال العلماء -رحمهم الله-: الباء في (بِسْمِ اللهِ) باء الاستعانة؛ أي: أبدأ مستعينًا بالله، طالبًا عونه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، متمنيًا وطالبًا البركة بذكر اسمه جَلَّ وَعَلَا.

وقولك: (بسم الله) الجار والمجرور هنا متعلق بمحذوف مقدَّر، يقدَّر له فعل بحسب حال الفاعل، إن كان خروجا فيقدر: أخرج باسم الله، وإن كان دخولا: أدخل بسم الله، وإن كان كتابة: أكتب بسم الله، وإن كان قراءة: أقرأ بسم الله. ففي (بسم الله) الجار والمجرور متعلق بمحذوف مقدَّر يُقدر بحسب حال الفاعل.

قال: « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »، وفي « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » اجتمعت ثلاث أسماء حسنىٰ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

أولها اسمه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ (الله): ومعناه كما قال ابن عباس رَضِيَ اللُه عَنْهُمَا: **"الله: ذو الألوهية، والعبودية علىٰ خلقه أجمعين"**[1].

(1) رواه الطبري من طريق بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس قال السيوطي و بشر ضعيف و الضحاك لم يسمع من بن عباس. كتاب: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، باب: القول في تأويل قول الله جلَّ ثناؤُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: الله.

فاسمه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ (الله) يدل علىٰ أوصاف الكمال ونعوت الجلال وأوصاف العظمة، التي استحق بها -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- أن يُؤله وأن يُعبد وأن يُخضع له ويُذل -جَلَّ وَعَلَا- .

ودال أيضا علىٰ العبودية التي هي وصف العبد، وأن الواجب علىٰ العبد أن يكون عبدا للإله، ذليلا له، خاضعا لجنابه، منكسرًا بين يديه، قائمًا بطاعته وأمره -جَلَّ وَعَلَا-، محققًا العبودية التي خُلق لأجلها وأُوجد لتحقيقها.

و(الرَّحْمَن الرَّحِيم): اسمان دالأَّن علىٰ ثبوت الرحمة صفةً لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ واسمه -جَلَّ وَعَلَا- (الرَّحْمَنِ) يدل علىٰ صفة الرحمة القائمة به سبحانه.

واسمه (الرَّحِيم): دال علىٰ تعلقها بالمرحومين. كما قال -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[1] .

فهذه أسماء ثلاثة عظيمة جاءت في البسملة، وبدأ بها -رحمه الله تعالىٰ- مؤلِّفه تأسيًّا بكتاب الله جَلَّ وَعَلَا، وتأسيًّا بنبينا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ في مُكاتباته ومُراسلاته -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُه عَلَيْه-، وتأسيًّا بأئمة المسلمين وعلماء الإسلام في أول الزمان وآخره.

قال « أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ »؛

(أسأل الله الكريم) أي: أطلب منه جَلَّ وَعَلَا.

(الكريم): اسم من أسماء الله -جَلَّ وَعَلَا- وهو دال علىٰ صفة الكرم؛ وهذه الصفة تعني اجتماع صفات الخير وكوامل الصفات وجوامع النعوت. ولهذا؛ فإن هذا الاسم من الأسماء التي تدل علىٰ أوصاف عظيمة لا علىٰ معنىٰ مفرد، من الأسماء الدالة علىٰ أوصاف عظيمة ونعوت جليلة كثيرة، ثابتة للرب الكريم -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-.

قال: «أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»؛ (رب العرش العظيم): ذكر هنا ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ، والربوبية: هي المُلك والخلق والتصرف والتدبير في هذه الكائنات.

---

(1) الآية رقم: 43 من سورة الأحزاب.

وخصّ بالذكر هنا العرش -ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ للعرش- لأنه أعظم المخلوقات وأكبرها، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ وصف عرشه في القرآن الكريم بالعظمة والكرم والمجد، وجاءت أيضا أوصاف كثيرة له في سنة النبي الكريم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، فذكر المصنف -رحمه الله تعالىٰ- هنا ربوبية الله جَلَّ وَعَلَا للعرش، وخصَّه بالذكر لأنه أكبر المخلوقات وأعظمها.

ويأتي في بعض الأذكار والدعوات الثابتة عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ ذكر ربوبية الله للعرش، ويخصُّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام بالذكر، كما في الذكر الذي يقال عند الكرب "لا إله إلا الله العظيم لا إله إلا الله رب العرش الكريم"[1]، وكما أيضا في الدعاء الذي يقال عند النوم: "اللهم رب السماوات السبع، ورب الأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء ومليكه، فالق الحب والنوىٰ، منزل التوراة والقرآن والإنجيل..." [2] إلىٰ آخر الدعاء، فيأتي مثل ذلك في دعوات النبي الكريم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ.

والعرش مخلوق من مخلوقات الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- العظيمة، وهو أكبر المخلوقات وأعظمها. ولهذا لما أراد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام في تسبيحه لله أن يذكر أثقل الأوزان ذكر العرش، قال: "سبحان الله وبحمده عدد خلقه وزنة عرشه"[3]، ذكر صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ زِنة العرش لأن العرش أثقل المخلوقات وأكبرها وأعظمها، والعرش مخلوق لله جَلَّ وَعَلَا، خلقه سُبْحَانَهُ، وأوجده من العدم، وشاء جَلَّ وَعَلَا أن يستوي عليه، أي يعلو ويرتفع عليه علوًّا وارتفاعًا يليق

---

(1) رواه البخاري (7431) (6346)، ومسلم (2730)، من حديث عبدالله بن عباس.

(2) رواه مسلم (4/ 2084).

(3) رواه مسلم (2726).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «المنار المنيف في الصحيح والضعيف» (ص:37): ((وقوله : "وزنة عرشه" فيه إثبات للعرش، وإضافته إلىٰ الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه أثقل المخلوقات علىٰ الإطلاق؛ إذ لو كان شيء أثقل منه لوُزن به التسبيح، وهذا يَرُدُّ علىٰ من يقول إن العرش ليس بثقيل ولا خفيف، وهذا لم يعرف العرش ولا قَدَّرَهُ حق قدره)) اهـ.

بجلاله وكماله وعظمته سبحانه. كما أخبر بذلك عن نفسه في كتابه في مواضع من القرآن في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[1]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[2].

وكم هو جميل للمؤمن في دعائه لله -جَلَّ وَعَلَا- ومناجاته له، أن يذكر عظمة ربه -جَلَّ وَعَلَا- وكماله وكبرياءه، وعندما تناجي الله عَزَّ وَجَلَّ وتدعوه متذكرًا ربوبيته ولاسيما ربوبيته -جَلَّ وَعَلَا- للعرش العظيم، وتذكر عظمة هذا المخلوق وكِبَره وضآلة المخلوقات الأخرىٰ بالنسبة إليه، مما يُعينك علىٰ ذكر عظمة الله -جَلَّ وَعَلَا- وكبريائه.

وأن هذا الكون الذي تحت العرش ودون العرش كله مسخر ومدبَّر لله جَلَّ وَعَلَا، يصرِّفه كيف يشاء ويقضي فيه بما يريد، لا رادَّ لحكمه، ولا معقب لقضائه، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فوق عرشه المجيد، عليٌّ عليه، يقضي بما يشاء ويحكم بما يريد، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، كل يوم هو في شأن، يُحي ويُميت، ويُعز ويُذل، ويُغني ويُقني، ويُضحك ويُبكي، ويُصح ويُمرِض.. إلىٰ غير ذلك من الأمور التي هي تصريفه وتدبيره لمملكته جَلَّ وَعَلَا، لا شريك له في التدبير ولا شريك له في التسخير والقضاء، الأمر أمره، والقضاء قضاؤه، والحُكم حُكمه -جَلَّ وَعَلَا-.

فيذكر العبد عظمة الله وجلاله وكماله وربوبيته، ويجعل ذلك وسيلة له إلىٰ الله جَلَّ وَعَلَا بين يدي دعائه في مناجاته لله، ومناداته له -جَلَّ وَعَلَا-.

ولهذا قال -رحمه الله-: «أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

يَحتمل قوله: (العظيم) أن المراد بالعظيم صفة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ويَحتمل أن يكون صفة للعرش، وكلٌّ منهما حق؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: (العظيم)، ومن أسمائه الحسنىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: (العظيم)، وقد خُتمت أعظم آية في القرآن الكريم وهي آية الكرسي بهذا الاسم ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ

(1) الآية رقم: 54 من سورة الأعراف، السجدة:4، الفرقان:59، الرعد:2، يونس:3.

(2) الآية رقم: 5 من سورة طه.

﴿الْعَظِيمُ﴾[1]، فالعظيم اسم من أسماء الله، والعظيم أيضا صفة من صفات العرش، فيحتمل هذا ويحتمل ذاك.

« أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»: يكون العظيم صفة لله جَلَّ وَعَلَا.

و « أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»: يكون العظيم بهذا صفة للعرش.

قال: « أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » هذا هو المطلوب وما قبله وسيلة بين يديه. المطلوب قال: « أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ »، أي أن يكون وليًّا لك، في دنياك وأخراك، قال الله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[2]؛

يتولاك في الدنيا: أي بحفظه وتوفيقه وتسديده وعونه لك علىٰ طاعته وإخراجه لك من الظلمات إلىٰ النور، وتبصيرك في دينك و في الحق الذي خُلقت لأجله وأُوجِدت لتحقيقه، وأن يُثبِّتك علىٰ هذا الحق، وأن يعيذك من الضلال وسبل الغواية، كل ذلك يتناوله قوله: « أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا»؛ فتولي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لعبده في الدنيا بحفظه في هذه الدنيا من مضلات الفتن وتثبيته لعبده علىٰ الاستقامة والحق والهدىٰ وعلىٰ صراط الله المستقيم إلىٰ أن يتوفاه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وهو عنه راض.

قال: « وَالآخِرَةِ »؛ وتولي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لعبده في الآخرة: يكون بحفظه من أهوالها وشدائدها، ويكون بإنقاذه وإنجائه من النار ومن دخولها، وتوفيقه له بدخول الجنة والفوز بنعيمها، وأن يكرمه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأعظم نعمة وأجلِّ مِنة وهي أن يرىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ وهي أكبر النعم وأعظم المنن.

فكل ذلك داخل في قوله -رحمه الله تعالىٰ-: «وَالآخِرَةِ »، أي أن يتولاك تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الآخرة؛ بأن يكون وليًّا لك، بالحفظ والتوفيق والتسديد والعون.. إلىٰ غير ذلك.

---

(1) الآية رقم: 255من سورة البقرة.

(2) الآية رقم: 257 من سورة البقرة.

قال: «وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ»؛ وهذه دعوة من أعظم الدعوات وأجلِّها وأفخمها وأكبرها، قد قال الله تعالىٰ في ذكر نبيه عيسىٰ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[1]، ولا يكون الإنسان مباركا أينما كان إلا إذا كان في مجالسه كلها صالحا مصلحا، صالحا في نفسه ليس منه شر ولا أذىٰ ولا إفساد ولا نحو ذلك، وأن يكون مصلحا بحيث أنه في كل مجلسٍ من مجالسه يُسمع منه الخير، تُسمع منه الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة والتنبيه النافع ونحو ذلك.

ولهذا ذكر ابن القيم -رحمه الله- في بعض كتبه، وأظن أنه ذكره في كتابه: «الرسالة التبوكية»، قال :**"لا يكون العبد مباركا أينما كان إلا إذا كان في كل مجلس يجلسه يكون فيه نفع للناس"**، وبهذا يكون مباركا أينما كان، أي في أيّ مكان حلَّ وفي أيّ موضع نزل، فهو أينما كان يُنتفع به، مَثَله كمَثل الغيث أينما حلَّ نزل.

قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[2]، وهذا يتناول أن يكون العبد مباركا أيضا في نفسه، في ماله، ورزقه، وعمله، وبيته، وحاله، وشؤونه.

قال: « وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ »؛ دعا بهذه الأمور الثلاثة العظيمة التي جمعت الخير كله والسعادة برمتها.

ولهذا قال -رحمه الله- في خاتمة هذه الدعوة مُبيِّنا مكانتها وعظم شأنها، قال: « فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ »؛ أي أن السعادة اجتمعت في هذه الثلاث، فإذا وُجدت هذه الأمور الثلاثة في العبد فإن السعادة اجتمعت فيه وتحققت فيه ونالها بأعلىٰ صورها وأبهىٰ حللها.

والسعادة من أعظم المطالب التي يسعىٰ الناس لتحقيقها، وتعقد المؤتمرات والندوات والمجالس وتكتب المؤلفات لطلب السعادة، وليس أحد من الناس إلا وهو يريد لنفسه سعادة،

(1) الآية رقم: 31 من سورة مريم.

(2) الآية رقم: 31 من سورة مريم.

حتىٰ الذين يباشرون الفساد ويتعاطون أمور الانحراف يظنون أنها تجلب لهم سعادة وأن السعادة تتحقق لهم بتلك المسالك التي هي في الحقيقة مهالك لهم ومضار عليهم في دنياهم وأخراهم.

فالسعادة لا تُنال إلا بتحقيق هذه الأوصاف الثلاث التي ذكرها -رحمه الله تعالىٰ- في هذه الدعوة المباركة العظيمة. لا تُنال إلا بهذه الأوصاف الثلاثة: الشكر والصبر والاستغفار. فهذه الأمور الثلاثة إذا اجتمعت في العبد اجتمعت فيه السعادة وتحققت له.

قال: « وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ »، ولو تأملت تجد أن أحوال العبد في هذه الحياة الدنيا لا تخرج عن هذه الأمور الثلاثة؛ إما أن يكون مبتلىٰ بمصيبة، أو أن يكون ممتنٌّ عليه بنعمة ومنة، أو أن يكون واقعا في ذنب.

لا تخرج أحوال العبد في حياته عن هذه الأمور الثلاثة: إما مبتلىٰ بمصيبة، أو منعَم عليه بنعمة -و مما يدخل في النعمة نعمة الدين، فهي من أعظم النعم، بأن يوفق للصلاة والصيام وطلب العلم وبر الوالدين وصلة الأرحام، هذه أعظم النعم- أو أن يكون قد وقع في ذنب.

فالعبد لا يخرج في حياته عن هذه الأمور الثلاثة: إما مبتلىٰ بمصاب، أو منعَم عليه بنعمة، أو واقع في ذنب، لا يخرج عن هذه الأمور الثلاثة.

والواجب علىٰ العبد أن يجاهد نفسه مجاهدة تامة علىٰ أن يكون عند البلاء من الصابرين، وعند النعم من الشاكرين للمنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ، وعند وقوعه في الذنوب من المستغفرين، فإذا كان كذلك جمع لنفسه الخير كله.

قد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام: "عجبًا لأمر، المؤمن إن أمره كله خير، إن إصابته سرَّاء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، ولا يكون ذلك إلا للمؤمن"[1]، هكذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام، بدأ أول الحديث بقوله: "عجبا لأمر المؤمن"، وختم الحديث بقوله: "وذلك لا يكون إلا للمؤمن".

(1) رواه مسلم (2999).

فالمؤمن عند المصيبة صابر وعند النعمة شاكر، في المصائب يفوز بثواب الصابرين وفي النعم يفوز بثواب الشاكرين، فهو فائز في كلا الحالين، في مصائبه فائز وفي نعمه فائز، في مصائبه فائز بثواب الصابرين وفي نعمه فائز بثواب الشاكرين .

والأمر الثالث قال: « وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ»؛ أي إذا وقع في الذنب بادر إلىٰ الاستغفار، ويعلم أن الله عَزَّ وَجَلَّ يغفر الذنوب ويعفو عن السيئات، ولا يتعاظمه -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- ذنب أن يغفره، ولهذا لا يقنط من رحمة الله ولا ييأس من روح الله مهما كان ذنبه ومهما عظم جرمه، فإنه يبادر بالأوْبة والرجوع إلىٰ الله جَلَّ وَعَلَا.

وقد ذكر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام قصة العبد الذي أذنب ذنبا، فقال: "أذنب عبد ذنبا، فقال: اللهم! اغفر لي ذنبي، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب! اغفر لي ذنبي، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: عبدي أذنب ذنبا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب فقال: أي رب! اغفر لي ذنبي، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرتُ لك"[1]، أي ما دمت علىٰ هذه الحال.

انتبهوا: "اعمل ما شئتَ فقد غفرتُ لك"؛ أي ما دمتَ علىٰ هذه الحال؛ ملازمًا للاستغفار، مجاهدا نفسك علىٰ أن لا تقع في المعصية وأن لا تقع في الخطيئة، وإن بدر منك زلل أو وقعت في خطأ بادرت إلىٰ الاستغفار، ما دمت علىٰ هذه الحال فأنت مغفور لك.

وقد قال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: "كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون"[2]؛ ابن آدم ليس معصوما، ابن آدم خطاء، لكن له ربٌّ يغفر -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- ويتجاوز ويصفح عَزَّ وَجَلَّ.

ولهذا؛ إذا وقع العبد في ذنب جرَّته إليه نفسه الضعيفة ودعاه إليه الشيطان، أو جرَّه إليه قرناء السوء وخلطاء الفساد أو أغوته نفسه للوقوع فيه، عليه أن يعلم فورا أن له ربًّا يغفر الذنب ويتجاوز،

---

(1) رواه مسلم (2758) من حديث أبي هريرة.

(2) رواه الألباني في صحيح ابن ماجه (3447) وفي صحيح الجامع (4515) وقال:حسن.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1]، فلا يزال العبد بخير مادام يعلم أن له ربًّا يغفر ويتجاوز ويصفح -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، وأما ابن آدم فضعيف وكثير الخطأ والزلل، ودواعي الخطأ كثيرة جدا، **"ليس العجب ممن هلك كيف هلك، ولكن العجب ممن نجا كيف نجا"**.

الأمور التي تجرُّ الإنسان إلىٰ الخطأ كثيرة جدا، لكن لا يزال العبد بخير مادام يعلم أن له ربًّا يغفر، لهذا لا يزال العبد يجاهد نفسه علىٰ البعد عن الذنوب وعدم الوقوع فيها، وإذا انفلتت نفسه ووقع في زلة أو وقع في خطيئة بادر إلىٰ الاستغفار.

ومن عظيم حب الله جَلَّ وَعَلَا للاستغفار والمستغفرين قال عَزَّ وَجَلَّ في الحديث القدسي: "لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم"[2].

ولهذا؛ ربما كانت بعض الذنوب علىٰ الإنسان خير له، لأنها تفتح عليه باب ندم عظيم وباب استغفار كثير، ربما بدون هذا الذنب يقل استغفاره، لكنه يقع في ذنب وزلة ثم يقع في قلبه حياء عظيم من الله عَزَّ وَجَلَّ ومراقبة لله وألم وندم علىٰ ما وقع فيه من ذنب وخطيئة فيكثر علىٰ لسانه الاستغفار كثرة ربما لا تكثر علىٰ لسانه لولا أنه ما وقع في هذا الذنب الذي ابتلي به، ولهذا لا يزال العبد بخير مادام أنه إذا أذنب استغفر.

ولهذا؛ لاحظوا الدعوة قال: « وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ ».

والذنب لا بد منه، الذنب في ابن آدم لا بد منه، لا بد أن يقع في الذنب، وذنوب الإنسان كثيرة، لكن ينبغي أن يكون العبد كثير الاستغفار.

وقد كان سيد ولد آدم أكثر الناس استغفارا وليس في عباد الله أكثر استغفارا من رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولكنه مع ذلك كان أكثر الناس

(1) الآية رقم: 53 من سورة الزمر.

(2) أخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة (2/ 659)، من حديث أبي سعيد الخدري، وقال: صحيح لغيره.

استغفارا، حتىٰ قال أبو هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ: **"ما رأيت أحدا أكثر من رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يقول أستغفر الله وأتوب إليه"**[1]، وقد رأىٰ أبو هريرة عُبَّاد الصحابة وخيار الأمة وأكثر الناس استغفارًا وما رأىٰ في ذلك الجيل أكثر من النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ ملازمة للاستغفار.

فكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ ملازمًا للاستغفار في حياته كلها، حتىٰ إنه ختم حياته كلها بالاستغفار؛ كما جاء في حديث أم المؤمنين عائشة: مات صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بين صدري ونحري وهو يقول: "اللهم اغفر لي وألحقني بالرفيق الأعلىٰ"[2] كانت هذه من آخر كلماته التي فارق عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام بها الدنيا".

الشاهد أن العبد تتحقق له السعادة إذا اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاث العظيمة، ألا وهي: الصبر والشكر والاستغفار.

ولعل في هذه الدعوة العظيمة المباركة التي دعا بها المصنف -رحمه الله- أن تكون فاتحة باب لك أن تعتني بهذه الأمور الثلاث التي هي عنوان السعادة: الصبر والشكر والاستغفار، بحيث تكون مجاهدا لنفسك علىٰ تحقيق هذه الأمور الثلاثة؛ إذا كان صبرك ضعيفا فاجتهد في تنميته واسأل الله جَلَّ وَعَلَا المعونة علىٰ ذلك، وإذا كان شكرك قليلا فاجتهد أيضا علىٰ تكثيره وتقويته واسأل الله عَزَّ وَجَلَّ المعونة علىٰ ذلك، قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾[3]، لا تكون شاكرًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلا إذا أعانك الله ويسَّر لك، وأن تعتني بالاستغفار وأن تكثر منه، وأن يكون استغفارك في مجالسك وفي تنقلاتك وفي حركاتك استغفرًا كثيرًا.

---

(1) رواه النسائي في السنن الكبرىٰ (6/ 118)، وابن حبان في صحيحه (3/ 207- 928).

(2) أخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة (2775)، وقال: إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين. عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان يعوذ بهذه الكلمات: اللهم رب الناس أذهب الباس، واشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقما. فلما ثقل في مرضه الذي مات فيه أخذت بيده فجعلت أمسحه بها وأقولها فنزع يده من يدي وقال: "اللهم اغفر لي وألحقني بالرفيق الأعلىٰ". قالت : فكان هذا آخر ما سمعت من كلامه".

(3) الآية رقم: 19 من سورة النمل.

فهذه كما أنها دعوة فهي لفتة من المصنف -رحمه الله- إلىٰ العناية بهذه الأمور الثلاثة التي هي أبواب السعادة.

وتكون عنايتك بها من جهتين:

الجهة الأولىٰ: أن تدعو لنفسك بهذا الدعاء أن ييسر الله لك -عَزَّ وَجَلَّ- هذه الأمور الثلاثة، التي هي عنوان السعادة.

والأمر الثاني: أن تُتْبع الدعاء بفعل السبب؛ وذلك بأن تجاهد نفسك علىٰ أن تكون من الذين إذا ابتلوا صبروا، وإذا أنعم عليهم شكروا، وإذا أذنبوا استغفروا.

نعم :

المتن: - المقدمة-

اِعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ؛ أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُم لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات:56].

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّىٰ عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّىٰ صَلاَةً إِلا مَعَ الطَّهَارَةِ.

فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ؛ كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ.

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ، مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ؛ عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشِّرْكُ بِاللهِ، الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾ [النساء:116].

وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ.

الشـرح:

قال –رحمه الله تعالىٰ–: « اِعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ » ؛

(اِعلم): هذه الكلمة يؤتىٰ بها بين يدي الأمور العظيمة والأمور الكبار، وقد تكرر مجيئها في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ في التنبيه علىٰ الأمور العظام، ومن ذلكم قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾[1]. فهذه يؤتىٰ بها لشد الانتباه ولفت الانتباه واستدعاء القلوب للإصغاء ووعي هذه الأمور العظيمة الكبيرة.

قال: «اِعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ»، وهنا دعا بهذه الدعوة العظيمة بعد أن دعا إلىٰ الانتباه لما سيقال ولما سيُبيِّنه –رحمه الله تعالىٰ–.

(أرشدك): أي جعلك من أهل الرشاد، والرشاد ضد الغواية، قد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾[2]، الضلال ضده الهداية، والغواية ضدها الرشاد، وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ أي أنه سالم من الضلال والغواية، وذلك بأنه اجتمع له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ كمال العلم النافع والعمل الصالح.

وقد قال نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ في ذكر الخلفاء الراشدين: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين"[3]، جمع لهم بين هاتين الخصلتين، وهما تعنيان صلاح علم الإنسان وصلاح عمله.

الهداية: صلاح العلم.

والرشاد: صلاح العمل.

---

(1) الآية رقم: 19 من سورة محمد.

(2) الآية رقم: 2 من سورة النجم.

(3) أخرجه الألباني في صحيح الترغيب (37) وقال: صحيح، عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودع فأوصنا قال: "أوصيكم بتقوىٰ الله، والسمع والطاعة، و إن تأمر عليكم عبد، وأنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، و إياكم و محدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة"

قال: «أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ» أي جعلك الله من أهل الرشاد الذين هم عالمون بالطاعة، عاملون بها، محافظون عليها.

«أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ»، هذا الأمر الذي دعا –رحمه الله– الانتباه إلىٰ ضبطه والعلم به ومعرفته؛ أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصا له الدين، هذه هي الحنيفية، التي هي ملة أبينا إبراهيم خليل الرحمن عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ.

وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]، فمِلَّة إبراهيم التي أُمرنا بإتباعها هي: الحنيفية، وتأمل الآية، قال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، فالدين الذي أُمرنا بإتباعه ولزومه هو الحنيفية ملة إبراهيم، ولهذا كان متأكِّدا علىٰ كل مسلم أن يعرف الحنيفية ما هي، لأننا أُمرنا باتباعها ولزومها والتمسك بها والمحافظة عليها وأن نكون من أهلها.

قال: «اِعْلَمْ أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ»، هذه هي الحنيفية. الحنيفية التي هي ملة إبراهيم: هي أن تعبد الله مخلصًا له الدين، ولهذا لا يكون الإنسان حنيفًا إلا إذا كان مخلصًا، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[2]، لا يكون من الحنفاء –والحنفاء جمع حنيف– إلا إذا كان مخلصًا دينه لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، بدون ذلك لا يكون حنيفًا.

والحَنَف: أصله في اللغة: الميل، والمراد هنا: الميل والعدول عن الباطل إلىٰ الحق والهدىٰ والتوحيد والاستقامة؛ مائلاً عن الشرك إلىٰ التوحيد، وعن الضلال إلىٰ الهدىٰ، وعن الباطل إلىٰ الحق، وعن الغواية إلىٰ الرشاد، هذا هو الحنيف.

قال: «الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ»، وقوله أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين، هذا هو التوحيد الذي خُلقنا لأجله وأُوجدنا لتحقيقه.

(1) الآية رقم: 123 من سورة النحل.

(2) الآية رقم: 5 من سورة البينة.

ولهذا قال المصنف -رحمه الله-: « كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]»، فالتوحيد الذي خُلق الخلق لأجله وأُوجدوا لتحقيقه هو أن يعبدوا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مخلصين له الدين.

وهذا يتطلب منك أن تعرف:

أولا: العبادة ما هي، ما حقيقتها، ما أفرادها.

ويتطلب منك ثانيا: أن تجعلها كلها لله، لا تجعل لأحد منها شيئا.

يتطلب منك أن تعرف العبادة التي خُلقت لأجلها وأُوجدت لتحقيقها، ويتطلب منك أن تجعل العبادة كلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا تجعل لأحد أيًّا كان ومهما كان حظًّا ولا نصيبًا ، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لغيرهما، فالعبادة حق لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا»، ومعنىٰ (مخلصًا): أي أن تكون عبادتك لله خالصة، ومعنىٰ خالصة: أي صافية نقية، ليس فيها شائبة شرك ولا رياء ولا نحو ذلك، بل هي صافية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وإذا أردت أن تعرف معنىٰ الإخلاص في لغة العرب فاقرأ قول الله تعالىٰ في سورة النحل، سورة النِّعم، اقرأ قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾[2]، (خالصًا): أي صافيًا نقيًا، هذا معنىٰ الخالص.

الخالص في اللغة: الصافي النقي.

وقد وصف ربنا جَلَّ وَعَلَا اللبن الذي يخرج من بهيمة الأنعام بأنه خالص أي صافي نقي، وذكر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنه أخرجه من بين فرث ودم، خرج اللبن من بين الفرث والدم لكنه خرج خالصا لا ترىٰ فيه نقطة دم ولا قطعة فرث، مع أنه خرج من بين فرث ودم، فيخرج خالصا أي صافيا نقيا. ويخرج أيضا سائغا للشاربين، مع أنهم علموا مخرجه، علموا من أين خرج؛ لكنه سائغ

---

(1) الآية رقم: 56 من سورة الذاريات.

(2) الآية رقم: 66 من سورة النحل.

لهم، أي يشربونه بتلذذ وهناءة وتطعُّم له وحُبٍّ له، مع أنهم يعلمون من أين خرج، فهذه الآية تبين لك معنىٰ الخالص في لغة العرب.

وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[1]، وقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[2] أي الصافي النقي.

ولهذا؛ العبادة لا تكون مقبولة من العبد إلا إذا كانت لله خالصة، ومعنىٰ خالصة أي صافية نقية، لم يُرَد بها إلا الله جَلَّ وَعَلَا.

ولهذا؛ إذا خالط العبادة نية أخرىٰ فإنها تخرج عن الإخلاص، وإذا خرجت عن الإخلاص لم تُقبل، ولهذا قال ربنا عَزَّ وَجَلَّ في الحديث القدسي: "أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"[3]، أي أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يقبل العمل إلا إذا كان صافيا نقيا خالصًا لم يُرَد به إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قال: «كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[4]»؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾ - الخَلقُ فعله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾ أي لم أُوجد الثقلين من العدم إلا لغاية بيّنها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وقد جاء عن ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وغيره أن كل أمر بالعبادة في القرآن أمر بالتوحيد.

فمعنىٰ قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليوحدون في العبادة، ليخصوني بالعبادة، لا يعبدوا معي غيري، ليفردوني في العبادة.

(1) الآية رقم: 5 من سورة البينة.

(2) الآية رقم: 3 من سورة الزمر.

(3) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (2985)، من حديث أبي هريرة.

(4) الآية رقم: 56 من سورة الذاريات.

وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ العبادة فعل العبد، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل في العبد مشيئة، وهداه النجدين؛ طريق الحق وطريق الضلال، قال تعالىٰ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾[1]، فقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليقوموا بعبادتي، هذا الذي خلقهم لأجله.

لكن هل كلهم فعل ذلك الذي خُلِقوا له؟ الجواب: لا، ولهذا قال في آية أخرىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾[2].

قال: « فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّىٰ عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوْحِيدِ»؛ وهذا أصل لا بد أن يعرفه كل مسلم، ولهذا نقلتُ لكم عن ابن عباس أنه قال: **"كل أمرٍ بالعبادة أمر بالتوحيد"**، لأن العبادة لا تكون عبادة إلا بالتوحيد.

العبادة إذا دخلها إرادة غير الله وإشراك غير الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- معه في العبادة ماذا تكون؟ هل هي العبادة التي خلق الله الخلق لأجلها؟ قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، هذه العبادة التي خلق الله عَزَّ وَجَلَّ الخلق لأجلها هل هي تلك الأعمال التي يمارسها كثير من الناس؛ يسألون الله ويسألون الأحجار، يعبدون الله ويعبدون القباب والأحجار والأشجار وغيرها، هل هذا الذي خُلقوا لأجله؟ هل هذا المعني بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؟ حاشا وكلاَّ، هذا ليس عبادة وإنما هو شرك.

ولهذا؛ العبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد.

ونظَّر -رحمه الله- لذلك بمثال يوضح ذلك قال: «فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّىٰ عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّىٰ صَلاةً إِلا مَعَ الطَّهَارَةِ»؛ لو أن إنسانا صلىٰ؛ ركع وسجد وأتىٰ بأعمال الصلاة من أولها إلىٰ آخرها وهو علىٰ غير طهارة، هل يقال له صليت أو يقال له لم تصل؟

(1) الآية رقم: 36 من سورة النحل.

(2) الآية رقم: 36 من سورة النحل.

ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ، أي لم تصلي الصلاة التي أُمرت بها وطُلبت منك، فالذي يصلي بغير طهارة كأنه ما صلىٰ، صلاته وجودها وعدمها سواء، لأن الصلاة لا تكون صلاة إلا مع الطهارة، والعبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد، فإذا كانت العبادة قائمة علىٰ التوحيد كانت عبادة صحيحة مقبولة.

وإذا كانت العبادة ولو كانت كثيرة أمضىٰ فيها الإنسان حياته ودهره إذا لم تكن قائمة علىٰ التوحيد، فإنها كلها تذهب سدىٰ وتضيع هباء ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾[1]، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2].

فهذا أصل عظيم يجب علىٰ كل مسلم أن يضبطه؛ العبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تكون صلاة إلا بالطهارة، فمن عبد الله بغير التوحيد فهو مشرك بالله، لا يقبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبادته، ومن عبد الله عَزَّ وَجَلَّ بالصلاة من غير طهارة لم يقبل الله منه صلاته، وجود صلاته وعدمها سواء.

فهذا أصل عظيم يجب علىٰ كل مسلم أن يضبطه وأن يعتني به؛ وهذا يعني أن تعرف العبادة ما هي، والأمر الثاني أن تجعلها كلها لله، لماذا؟ لأن الإنسان لو جعل لغير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شيئا من العبادة ولو شيئا قليلا أبطل دينه كله، لماذا يُبطل دينه كُله؟ لأن العبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد، فإذا جُعل مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شريك في العبادة ولو في شيء قليل منها أبطل العبادة كلها.

والشرك في العبادة مثل السّم في الطعام، إذا وُضع السّم في بعض الطعام أفسد الطعام كله وأتلفه أجمعه، ومَن الذي يقبل طعامًا وُضع في بعضه سمّ؟ السّم يسري في الطعام كله ويفسده كله.

(1) الآية رقم: 23 من سورة الفرقان

(2) الآيات: (103 – 104) من سورة الكهف.

العبادة لا تكون إلا مع التوحيد؛ بأن يكون العبد موحدًا لله جَلَّ وَعَلَا، مخلصا في عبادته كلها، وهذا يعني أن تكون صلاتك لله، حجك لله، ذبحك لله، نذرك لله ، دعاؤك تتوجه به إلىٰ الله، توكلك علىٰ الله، رجاؤك من الله، خوفك من الله، كل العبادات لا تصرف شيئا منها إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[1]، ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[2]، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[3]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدا.

قال:« فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ؛ كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ »؛ الشرك إذا دخل في العبادة فسدت كالحدث إذا دخل في الطهارة، الإنسان إذا كان علىٰ طهارة، توضأ وأصبح طاهرا ثم أحدث هل تبقىٰ طهارته علىٰ ما هي عليه وقد أحدث؟ الجواب: لا، والشرك إذا دخل في العبادة أفسدها مثل الحدث إذا دخل علىٰ الطاهر فإنه يفسد طهارته ويحتاج أن يتطهر من جديد.

وهذا الشبه بين الطهارة من الحدث والطهارة من الشرك جاء الإشارة إليه في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾؛ قيل في معناها: طهر نفسك من الشرك ومما ينقض الدين ويفسد الإيمان، وقيل في معناه: طهر ثيابك من النجاسة الحسية.

(طهر ثيابك) يتناول الطهارة المعنوية والطهارة الحسية ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5)﴾[4]؛ أي الأصنام، وعبادة غير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قال: « فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ؛ كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ » المثال الذي ذكره المصنف مثال يُجلِّي هذا الأمر تجلية واضحة، مَن الذي يعرف مكانة الطهارة في الصلاة ثم يُقدِم أن يصلي وعليه حدث؟ اسأل عامة المصلين، اسأل من يصلي وقد عرف أن صلاته لا تُقبل إلا بالطهارة، هل من عرف ذلك إذا توجه للمسجد ثم أحدث في الطريق هل يستمر في سيره للمسجد أو يبحث عن مكان ليتطهر ثم يدخل يصلي طاهرا؟ هذا أمر معروف.

---

(1) الآية رقم: 5 من سورة البينة

(2) الآية رقم: 3 من سورة الزمر.

(3) الآية رقم: 18 من سورة الجن.

(4) الآيات: (3 – 5) من سورة المدثر.

الأمر تماما في باب العبادة، العبادة لا تكون عبادة مقبولة إلا إذا خلصت ونُقيَّت وسَلِمت من الشرك، فإذا دخل الشرك في العبادة أفسد العبادة وأتلفها.

قال: « فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ، مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ؛ عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ »؛ أي معرفة الشرك، لماذا تعرفه؟ الشرك عرفنا أنه إذا دخل في العبادة أفسدها، جعلها حابطةً باطلةً غير مقبولة، إذن يجب علينا أن نَعرف الشرك أو لا يجب؟ يجب علينا أن نعرف الشرك، من أجل ماذا؟ من أجل أن نُنقِّي عبادتنا لله – تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ– منه ونصفيها منه، ونجعلها خالصة ليس فيها شيء من الشرك، فإذن يجب علىٰ كل مسلم أن يعرف الشرك من أجل أن يحذره.

عَرَفْتُ الشَّرَّ لاَ لِلشَّرِّ　　لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ
فَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّرَّ　　مِنَ النَّاسِ يَقَعُ فِيهِ[1]

إذا لم يعرف الإنسان الشرك وحقيقته ربما دخل الشرك في جوانب من عبادته فأفسدها وهو في قرارة نفسه لا يزال يظن أنه من أهل التوحيد ومن أهل لا إله إلا الله؛ بينما قد أدخل علىٰ نفسه أعمالاً من الشرك تفسد عمله وعبادته وتحبط دينه.

ولهذا كان واجبًا علىٰ كل مسلم أن يعرف الشرك من أجل أن يحذره، وأن يكون خائفًا علىٰ نفسه من الوقوع في الشرك.

---

(1) قال الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «الأجوبة النافعة» (ص:61): ((هذا المعنىٰ مستقىٰ من السنة، فقد قال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله! إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير شر؟ قال: "نعم" فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: " نعم، وفيه دخن" قلت: وما دخنه؟ قال: " قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر"، فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: " نعم دعاة علىٰ أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها "، فقلت : يا رسول الله صفهم لنا، قال: " نعم قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ...الحديث" أخرجه البخاري ومسلم)) اهـ.

وتأمل دعوة إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامْ قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾[1]، فإذن يجب علىٰ المسلم أن يعرف الشرك من أجل أن يحذره، كما أنه يجب عليه أن يعرف التوحيد من أجل أن يُحققه ويكون من أهله.

قال: « فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ، مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ»، قوله: «وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ» يدل عليه قول الله في القرآن: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ) -أي وحده- (وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ (66)﴾[2]، فالشرك إذا دخل العبادة أفسدها وأحبط العمل، وصار صاحبه من المخلدين في النار، لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾[3].

« عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ» أي معرفة الشرك لتوقِّيه ومعرفة التوحيد لتحقيقه.

قال: « لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ » وانظر هذا الوصف العجيب للشرك، الشرك: شبكة، وأنتم تعرفون أن الشبكة لها خيوط كثيرة ممتدة الأطراف هنا وهناك وإذا لامس الإنسان شيئا من خيوط هذه الشبكة ابتُلي بها وأمسكته وصار من أهلها.

الشرك شبكة له خيوط، له فروع كثيرة، له أنواع كثيرة، له أبواب عديدة، فإذا عرفت أن الشرك أخطر شيء وأنه إذا دخل العبادة أفسدها أو أبطلها، وجب عليك أن تكون علىٰ معرفة بالشرك حتىٰ تكون منه علىٰ حذرٍ وتوقٍّ وبُعدٍ عنه.

وأيضا هنا يفيدك هذا التعبير من المصنف بقوله: «هَذِهِ الشَّبَكَةِ» أن الشرك له مجالات كثيرة وجوانب عديدة من خلالها يُصطاد الناس ويخرجون عن الإخلاص والصفاء في العبادة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلىٰ الوقوع في شبكة الشرك، والعياذ بالله.

---

(1) الآية رقم: (35 – 36) من سورة إبراهيم.

(2) الآيات: (65 – 66) من سورة الزمر .

(3) الآية رقم: 116، 48 من سورة النساء.

قوله -رحمه الله-: « لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ وَهِيَ الشَّرْكُ بِاللهِ»، يتطلب منك -كما قدمت وأعيد ذلك لأهميته-:

- أن تعرف الشرك.
- وأن تكون منه علىٰ حذر.
- وأن تسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يعيذك منه.

قد جاء في دعاء عظيم، علَّمه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام أصحابه، عندما قال لهم: "إن الشرك فيكم أخفىٰ من دبيب النمل، ثم قال: ألا أخبركم بشيء إذا قلتموه أذهب الله عنكم قليل الشرك وكثيره قالوا: بلىٰ، قال: تقولون: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك ونحن نعلم ونستغفرك لما لا نعلم"[1] ، فيدعو الإنسان ربه جَلَّ وَعَلَا أن يخلِّصه من الشرك، ويعرف الشرك، ويكون منه علىٰ حذر.

قال: «وَهِيَ الشِّرْكُ بِاللهِ، الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ:﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾[2] ». وهذه وردت في موضعين من سورة النساء، وقد توعَّد -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- المشرك الذي يموت علىٰ الشرك ويلقىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مشركا بأنه لا يغفر له، بل يعذبه في النار ويخلده فيها أبد الآباد، ولا مطمع له في رحمة الله أبدًا إذا مات علىٰ الشرك بالله -جَلَّ وَعَلَا-، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾[3]، فالكافر المشرك يُدخَل يوم القيامة النار ويُخلَّد فيها أبد الآباد، ولا يُخفف عنه من عذابها، لا يُخفف العذاب! بل إنه يزيد، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا في سورة النبأ: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾[4]، ولهذا قال بعض المفسرين إن أشد آية علىٰ أهل النار

(1) رواه البخاري في الأدب المفرد (716)، وأبو يعلىٰ في مسنده (1/ 61)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (551)، من حديث معقل بن يسار المزني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

(2) الآية رقم: 116، 48 من سورة النساء.

(3) الآية رقم: 36 من سورة فاطر.

(4) الآية رقم: 30 من سورة النبأ.

هي قول الله تعالىٰ: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾، لأنهم عندما يدخلون النار لا يزال عندهم بعض الآمال، من الآمال أن يُعادوا إلىٰ الدنيا مرة ثانية ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾[1]، من الآمال أن يُقضىٰ عليهم فيموتوا ويَسلموا من هذا العذاب ومن هذه الشدائد، ومن الآمال أن يُخفَّف عنهم العذاب ولو قليلا، ثم يأتيهم هذا الأمر الذي يقطع عليهم كل الآمال ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾، أي لن تنالوا في النار إلا زيادة العذاب، لا ينقطع ولا يُخفف ولا يُقضىٰ علىٰ أهله فيموتوا، بل لا يزالون في العذاب أبد الآباد مخلَّدين في نار جهنم -أجارنا الله وأجاركم ووقانا ووقاكم-.

فإذن يجب علىٰ العبد أن يكون علىٰ غاية الحذر من هذا الشرك الذي هو أخطر أمر وأعظم أمر نهىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عباده عنه.

ولهذا أول أمر يصادفك في القرآن هو الأمر بالعبادة، وأول نهي يصادفك في القرآن النهي عن الشرك. ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2] : هذا أول شيء نهىٰ الله عنه في القرآن الكريم.

ثم قال -رحمه الله-: « وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ »؛

وانتبه لقوله -رحمه الله-: «ذَكَرَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ» لتعلم من خلال ذلك أن الرَّجل -رحمة الله عليه- لا يأتي بشيء من نفسه، لا يتكلف من نفسه؛ وإنما يجمع للناس ما جاء في القرآن، وما جاء في سنة النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسّلَامْ.

قال : «وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ» ثم ذكرها قاعدة قاعدة، ذاكرًا مع كل قاعدة دليلها وشاهدها من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

وهي قواعد عظيمة جليلة كبيرة ينبغي علىٰ كل مسلم ومسلمة أن يحفظها.

---

(1) الآية رقم: 37 من سورة فاطر.

(2) الآية رقم: 22 من سورة البقرة.

ولعل أعظم هدية يقدمها من حج لإخوانه وجيرانه وأهله ورفقائه أن يعرف هذه القواعد معرفة جيدة وأن يقدمها هدية، هي أثمن هدية يقدِّمها للجار وللقريب وللصديق وللحبيب وللرفيق، أعظم ما يُقدَّم له هذه القواعد العظام الكبار التي دل عليها كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وسنة نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ.

والحديث له صلة إن شاء الله، ونسأل الله أن ينفعنا أجمعين بما علَّمنا وأن يفقهنا في ديننا وأن يصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأن يصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا وأن يصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير والموت راحة لنا من كل شر، وأن يغفر لنا ولوالدينا والمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، إنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ غفور رحيم.

والله أعلم. وصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمْ علىٰ عبد الله ورسوله؛ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

القاعدة الأولى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِين.

نعم:

المتن: - القاعدة الأولى-

أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلامِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾.[يونس:31].

الشــرح:

هذه قواعد أربعة جمعها المصنف -رحمه الله تعالىٰ- في هذه الرسالة التي اشتهرت بالقواعد الأربع لأنها جمعت أربع قواعد عظيمة جدا ومهمة يحتاج إليها كل مسلم، لأن بمعرفة هذه القواعد يَميز المسلم بين الحق والباطل، والتوحيد والشرك، والهدىٰ والضلال، ولا تلتبس عليه الأمور، ولا تنطلي عليه شبهات المضلين وأضاليل المبطلين، بل إن هذه القواعد تكون له -بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ- نِعم العَون علىٰ المحافظة علىٰ التوحيد الصحيح والإيمان الراسخ والبعد عن الشرك، الذي هو أعظم الذنوب وأظلم الظلم.

هذه القواعد -أيها الإخوة الكرام- قواعد عظيمة جمعها المصنف -رحمه الله- ليَميز بها المسلم بين التوحيد والشرك؛ يعرف حقيقة التوحيد الذي خُلق الخلق لأجله وأُوجدوا لتحقيقه،

ويعرف من خلالها حقيقة ضده وما ينقضه وهو الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، الذي هو أعظم شيء نهىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عباده عنه، وتوعَّد أهله بأن يعذِّبهم يوم القيامة، وأن يخلِّدهم في نار جهنم أبد الآباد، وأن يدخلهم نار جهنم وأن يبقوا فيها مخلدين، لا يقضىٰ عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها.

وكل مسلم قرأ ما جاء في القرآن الكريم وسنة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ من الوعيد للمشركين والتهديد لهم والعقوبات التي أعدها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لهم يخاف من الشرك أعظم الخوف، ويحاذره أشد المحاذرة، ويحتاط لنفسه من أن يقع فيه أو في شيء من جوانبه.

وكما قدَّمتُ فإن هذه القواعد العظيمة المباركة التي جمعها المصنف -رحمه الله تعالىٰ- تعين العبد علىٰ ضبط هذا الأمر و تعينه علىٰ حسن فهمه، وعلىٰ السلامة من شبهات أهل الباطل.

وقد بدأها -رحمه الله تعالىٰ- بقوله: « وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ»؛ وقوله -رحمة الله عليه-: «ذَكَرَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ» يُبيِّن لنا المنهج الذي سار عليه -رحمه الله- في بيان العلم وتقرير الحق والهدىٰ، فهو في كل ما يبيِّنه ويقرِّره يذكر شواهد ذلك من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسنة نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، لا يأتي بشيء من قِبَل نفسه، ولا يَبني حُكمًا علىٰ الهوىٰ أو علىٰ التجربة أو علىٰ الذوق أو نحو ذلك من المسالك التي يسلكها كثير من الناس في الاستدلال لِما يقومون به من عبادات وأعمال.

فهو -رحمه الله تعالىٰ- لا يبني شيئا من أمور الدين إلا علىٰ قال الله وقال رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، ولهذا جاءت عامة كتبه -رحمه الله تعالىٰ- قائمة علىٰ هذا الأصل؛ يذكر الحكم مضمومًا إليه دليله من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسنة نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ.

وهذه الطريقة هي الطريقة الصحيحة التي ينبغي أن يكون عليها كل مسلم في عقيدته ودينه، إذ كيف تُعرف العقيدة الصحيحة والإيمان القويم بغير الاعتماد علىٰ كلام الله وكلام رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ؟!

وكما قال من قال من أهل العلم: **"كيف يُرام الوصول إلىٰ علم الأصول بغير معرفة ما جاء به الرسول"**[1] صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- كثيرا ما يقول: **"من فارق الدليل ضل السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول"**[2] صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ.

فهذه جادة مباركة وطريق قويمة كان عليها الإمام المجدد -رحمه الله تعالىٰ-، وكان عليها أئمة أهل العلم من قبله وكذا من بعده، يقيمون أمور الدين علىٰ قال الله قال رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ.

ولهذا قال لك هنا: « وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ»، ثم شرع في ذكرها قاعدة تلوىٰ الأخرىٰ؛

بدأ بالقاعدة الأولىٰ، قال:

« أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلامِ ».

وهذا -أيها الإخوة- أصلٌ عظيم وقاعدة مهمة جدا في هذا الباب؛ أن نعلم أن الكفار المشركين الذين ورد ذمُّهم في آيات كثيرة من القرآن الكريم وقاتلهم النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ واستباح أموالهم وقاتلهم -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ- كانوا مقرِّين بأن الخالق الرازق المُنعم هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ما كانوا يقولون إن الذي يخلق هو الأصنام، أو الذي يرزق هو الأصنام، أو الذي يعطي ويمنع هو الأصنام، ما كانوا يقولون ذلك؛ بل يقولون: الخالق هو الله، الرازق الله، المنعم الله، المدبر الله، كانوا يقولون ذلك ويقرِّون به، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيَّن لنا ذلك في القرآن الكريم في آيات كثيرة جدا، بيَّن فيها تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن المشركين الكفار الذين قاتلهم النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

(1) ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية (ص:18).

(2) ابن القيم، مفتاح دار السعادة (1/ 83).

وَسَلَّمْ كانوا مقرين بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ولم يدخلهم هذا الإقرار في الإسلام، كما بين ذلك المصنف -رحمه الله-، قال: « لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلامِ »؛ لأن الدخول في الإسلام لا يكون بمجرد الإقرار بربوبية الله وأنه عَزَّ وَجَلَّ الخالق الرازق المنعم المتصرف؛ بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازم هذا الإقرار، ألا وهو أن يُفرَد تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالعبادة وأن يُخصَّ وحده عَزَّ وَجَلَّ بالطاعة، وأن لا يُجعل معه شريك وأن يخلص الدين له جَلَّ وَعَلَا ، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[1].

وكما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا﴾[2].

وكما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[3].

وكما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾[4].

وكما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا﴾[5].

وكما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[6].

وكما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[7].

والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدا.

فلا يكون المرء موحدا لله عَزَّ وَجَلَّ إلا إذا أخلص العبادة لله، لا بمجرد إقراره بأن الرب الله، والرازق الله، والخالق الله، والمنعم الله، هذه وحدها ليست كافية لأن يكون بها العبد موحدا، إذ لا يكون موحدا إلا إذا جاء بالتوحيد العملي الذي هو: إخلاص العبادة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وإفراده

(1) الآية رقم: 5 من سورة البينة.
(2) الآية رقم: 36 من سورة النساء.
(3) الآية رقم: 23 من سورة الإسراء.
(4) الآية رقم: 36 من سورة النحل.
(5) الآية رقم: 151 من سورة الأنعام.
(6) الآية رقم: 3 من سورة الزمر.
(7) الآية رقم: 22 من سورة البقرة.

سبحانه بالعبادة دون سواه ؛ بأن لا يدعو إلا الله، ولا يستغيث إلا بالله، ولا يصلي ويسجد ويركع إلا لله، ولا يذبح ولا ينذر إلا لله، ولا يتوكل ويرجو ويخاف إلا من الله، ولا يصرف شيئا من العبادة إلا له عَزَّ وَجَلَّ، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]؛ أي بهذا التوحيد وهذا الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ. وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ (66) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67)﴾[2].

ولمَّا كانت هذه الرسالة مختصرة لا تحتمل الاستيعاب وبسط الدلائل والشواهد اكتفىٰ بذكر دليل واحد من دلائل القرآن الكريم علىٰ أن الكفار المشركين الذين قاتلهم النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ كانوا مقرِّين بأن الخالق الرازق المنعِم المتصرِّف المدبر هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فساق -رحمه الله- ما جاء في سورة يونس قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾؛ قل أيها النبي موجهًا الخطاب للمشركين الذين بُعثتَ فيهم قائلا لهم: من يرزقكم؟ سلهم هذا السؤال: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾[3]، سل المشركين الذين يعبدون الأصنام والذين اتخذوا الآلهة والأنداد وعبدوا مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ غيره، سلهم هذا السؤال: قل لهم من يرزقكم من السماء والأرض؟ من الذي يمنُّ عليكم بالرزق من السماء؟ أي بالأمطار التي تنزل من السماء مُحمَّلة بالخير والبركة والغيث للناس والعباد والماشية، ومن الأرض بإخراج النباتات والزرع وأصناف النعم التي يمُّن -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بها علىٰ عباده، ماذا يقولون؟ هل يقولون إن الذي يرزقنا من السماء والأرض هو الأصنام؟ لا يقولون ذلك، بل يعتقدون أن الأصنام

---

(1) الآية رقم: (162- 163) من سورة الأنعام.

(2) الآيات رقم: (65 - 67) من سورة الزمر.

(3) الآية رقم: 31 من سورة يونس.

ليست خالقة ولا رازقة ولا مدبِّرة ولا متصرفة، إذن لماذا يعبدونها؟ سيأتي الجواب علىٰ ذلك. لا يعتقدون أنها خالقة ولا يعتقدون أنها رازقة ولا يعتقدون أنها مدبرة أو مصرفة، لا يعتقدون ذلك، وإذا سئلوا: من يرزقكم من السماء والأرض؟ لا يقولون الأصنام، بل يقولون: الله هو الذي يرزقنا من السماء والأرض. أيضا سلهم: من يملك السمع والأبصار؟ من الذي بيده ملك السمع وملك البصر وملك كل شيء؟ سيقولون : الله هو المالك للسمع والبصر والمالك لكل شيء. أيضا سلهم من يُخرج الحي من الميت ويُخرج الميت من الحي؟ من هو الذي بيده الحياة والموت والتصريف والتدبير ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي؟ لا يقولون الأصنام، بل يقولون: الذي يفعل ذلك هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، الخالق لكل شيء، المتصرف في هذا الكون وحده -جَلَّ وَعَلَا-. أيضا سلهم من الذي يدبر الأمر؟ أي أمور هذا الكون من إحياء وإماتة، وعطاء ومنع، وخفض ورفع، وعز وذل، وغير ذلك من أنواع التدبيرات، من الذي يقوم بذلك؟ لا يقولون الأصنام هي التي تدبر الأمر، بل يقولون: الله.ولهذا قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾ هذا الجواب الذي يجيبون به.

﴿فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾ ؛ أي فسيقول المشركون الكفار إذا سألتهم هذا السؤال الذي يرزق من السماء والأرض، والذي يملك السمع والبصر، والذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، والذي يدبر الأمر هو: الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

﴿فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾؛ إذا قالوا الذي يخلق هذه الأشياء ويدبر هذه الأمور هو: الله، فقل لهم: ألا تتقون الله؟ لماذا تتخذون معه الأنداد وتتخذون معه الشركاء؟ وأنتم تقرُّون أنه لا خالق لكم غير الله، ولا مدبر للأمر غير الله، ولا مالك إلا الله، ألا تتقون الله، فتُفرِدونه بالتوحيد وتخصُّونه بالطاعة وتخلصون له الدين، وقد أقررتم أنه خالقكم ورازقكم والمدبر للأمور كلها؟ ألا تتقون الله عَزَّ وَجَلَّ؟ ﴿فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾؛ أي بترك الشرك والبعد عن الكفر وبالإخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالعبادة والتوحيد.

فهذه الآية ولها نظائر كثيرة جدا في كتاب الله تركها المصنف مراعاة للاختصار في هذه الرسالة، كلها تشهد وتدل علىٰ أن المشركين كانوا يُقرُّون بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ويأتي هنا سؤال قرَّر من خلاله المصنف -رحمه الله تبارك وتعالىٰ- هذه القاعدة: هل إقرار المشركين بأن الخالق الرازق المنعم المالك هو الله، هل هذا الإقرار أدخلهم في التوحيد والإسلام؟ هل كانوا بهذا الإقرار موحدين مسلمين؟ أم هم مع هذا الإقرار مشركون بالله كفار؟ وانظر الجواب علىٰ هذا السؤال في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1]. ما معنىٰ قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾؟ أي خالقًا رازقًا مالكًا مدبرًا متصرفًا ﴿إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أي إلا وهم مشركون معه غيره في العبادة، يقرُّون بأنه الخالق ولكن يدعون غيره، ويتوكلون علىٰ غيره، ويذبحون لغيره، ويصرفون أنواعا من العبادة لغيره، هذا هو معنىٰ قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

وأيضا قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]؛

ما معنىٰ قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟ والخطاب للمشركين الذين اتخذوا الأنداد ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، تعلمون ماذا؟ تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله، لا رازق لكم غير الله، لا مدبر للأمر غير الله، أنتم تعلمون ذلك، والشواهد علىٰ أنهم يعلمون ذلك ها هي أمامنا من كتاب الله: من يملك السمع والأبصار؟ من يرزقكم من السماء والأرض؟ من يدبر الأمر؟ من يخرج الحي من الميت؟ كل ذلك يجيبون قائلين: الله. إذن هم يعلمون أن الذي يخلق ويرزق ويُنعم

---

(1) الآية رقم: 106 من سورة يوسف.

(2) الآيات: (21- 22) من سورة البقرة.

ويدبر ويُحي ويميت ويتصرف يعلمون أن الفاعل لذلك والمُوجد لذلك والخالق لذلك هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ليس له شريك في ذلك.

إذن، لماذا يتخذون الأنداد والشركاء؟ هذا سؤال، هل الجواب علىٰ ذلك أنهم اتخذوا الأنداد والشركاء لأنهم يعتقدون أن هذه الأنداد تخلق؟ وأنها تحي وتميت؟ وأنها ترزق من السماء والأرض؟ وأنها تملك السمع والأبصار؟ هل هذا الجواب علىٰ هذا السؤال صحيح؟ أبدا، إذن لماذا كانوا يتخذون الأنداد مع أنهم يقرُّون أنها لا تخلق، ولا ترزق، ولا تدبر الأمر، ولا تُحي، ولا تميت؟ لماذا كانوا يتخذون الأنداد؟ الجواب علىٰ ذلك سيأتي عند المصنف -رحمه الله تبارك وتعالىٰ- في قاعدة آتية.

لكن هنا ينبغي أن نفهم من هذه القاعدة العظيمة التي ذكرها -رحمه الله تعالىٰ- أن إقرار المرء بأن الخالق، الرازق، المنعم، المتصرف، هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، هذا وحده لا يكفي لأن يكون به موحدا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، بل لا يكون موحدا لله إلا إذا أتىٰ بِلازِمه؛ ألا وهو إفراد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالعبادة وإخلاص الدين له، كما قال ربنا جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وكما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[1]؛ أي اعبدوا الرب الذي تفرَّد بالخلق والرزق والملك والإحياء والتدبير والتصرف، أَفرِدوه وحده -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بالعبادة.

ولهذا كانت هذه الحقيقة التي قررها القرآن واهتدىٰ إليها بعض المشركين كانت سببا لهدايتهم وتركهم لعبادة الأوثان وتخلُّصهم من عبادة الأصنام التي لا تملك شيئا، ولا تملك ضرًّا ولا عطاءً ولا نفعًا.

مثل قصة عمرو بن الجموح وهي قصة عجيبة كانت سبب إسلامه، وكان سيدا في قومه، وكان قد خصَّ نفسه بصنم عنده في البيت مُحتفيا به مُعتنيا به، يطيِّبه وينظفه ويجمله، ووضعه في مكان جميل في البيت، وكان كلما دخل إلىٰ بيته عبده. فمنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علىٰ ابنه معاذ بالإسلام وعلىٰ بعض صغار الأنصار -صغار الخزرج-، فخططوا خطة يوضحوا من خلالها

(1) الآية رقم: 92 من سورة الأنبياء.

لعمرو بن الجموح أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة، مثل الخطة التي قام بها إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامْ، فجاؤوا في الليل وعمرو بن الجموح نائم، وأخذوا الصنم وذهبوا به إلىٰ المكان الذي تقضىٰ فيه الحاجة ووضعوا الصنم مُنكَّسا علىٰ رأسه فوق العَذِرة، فلما أصبح يريد أن يعبد ذلك الصنم، أخذ يبحث عنه هنا وهناك إلىٰ أن وجده منكَّسا علىٰ رأسه فوق العَذِرة، فغضب من هذا المنظر ولا يزال قلبه متعلقا بهذا الصنم، فأخذه وغسله ونظفه وطيَّبه وأعاده إلىٰ مكانه وعبده، وهو قبل قليل حمله من فوق العَذِرة ملطخا بالعَذِرة، وأخذه وغسله بنفسه وأزال عنه الوسخ بيده ونظفه ثم وضعه أمامه وقام علىٰ عبادته!!

ثم أعادوا الكرة مرة ثانية، بحث عنه ووجده بهذه الصفة ونظفه وأعاده إلىٰ مكانه واستمر علىٰ عبادته.

المرة الثالثة لما أعاد الصنم إلىٰ البيت جاء في الليل ووضع بجانب الصنم سيف، قال: إن كنت صادقا دافع عن نفسك، يعني إلىٰ متىٰ أنا الذي أدافع عنك وأنا الذي أبحث عنك وأنظفك؟ جاؤوا في الليل وأخذوا الصنم بالسيف وذهبوا إلىٰ المكان الذي تلقي فيه النساء الحيض والقاذورات، وربطوا في عنقه كلب ميت، وأخذوا السيف ورموه في هذا المكان، وأخذ يبحث عنه ثم وجده بهذه الصفة، وحينئذ طابت نفسه، طابت نفسه لما تقرر عنده هذا الأمر؛ إذا كان لا ينفع نفسه، كيف ينفعني؟ إذا كان لا يملك لنفسه دفعا ولا نفعا ولا عطاء ولا منعا، لماذا أعبده؟ لماذا أبكي عنده؟ لماذا أرجوه؟ لماذا أمد يدي عنده أدعوه، وهو لا يملك شيئا لنفسه؟ كيف يملك لي شيئا وهو لا يملك شيئا لنفسه؟

مثل هذه القصة أيضا، قصة رجل من المشركين سافر إلىٰ مكان بعيد ومعه أغنامه إلىٰ صنم من الأصنام، وهو يريد أن يدعوه ويسأله ويعرض عليه حاجاته، ولما وصل إلىٰ الصنم فوجئ أن فوق الصنم ثعلب، والثعلب يبول، والبول ينزل من فوق رأس الصنم إلىٰ أسفل قدميه، فهاله المنظر ثم قال بيتا:

أَرَبٌّ يَبُـولُ الثُّعْلُبَـانُ بِرَأسِهِ   لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَـتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ

ورجع، لا تملك شيئا لنفسها، فكيف تملك شيئا لغيرها؟

يقول الله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ألا تتقون الله؟ كيف تعبدون أحجارا أو أشجارا لا تملك لنفسها ضرًّا ولا منعًا ولا عطاءً ولا خفضًا ولا رفعًا، كيف تعبدون هذه الأشياء؟

ثم هنا يأتيك سؤال ضعه في بالك لأنه سيأتي فيه قاعدة عند المصنف -رحمه الله-، قاعدة مهمة، هل الشرك الذي حرَّمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو عبادة الأحجار والأشجار فقط؟ أو عبادة كل شيء سوىٰ الله؟ مثلا من عبد مَلكًا من الملائكة، هل يكون مشركا أو لا يكون مشركا إلا إذا عبد حجرا؟ من عبد نبيًّا من الأنبياء كعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامْ أو غيره من الأنبياء، هل يكون بذلك مشركا؟ أو لا يكون مشركا إلا إذا عبد حجرا من الأحجار؟

هذه مسألة مهمة، وسيأتي تقريرها وذكر الدلائل عليها من كتاب الله في قاعدة مهمة جدا عند المصنف -رحمه الله تعالىٰ-.

إذن هذه القاعدة (القاعدة الأولىٰ)، قرَّر فيها -رحمه تعالىٰ- أن إقرار العبد بأنَّ الخالق الرَّازق المُنعم المتصرف المدبر هو الله، هذا وحده لا يكفي لأن يكون به موحدًا، بل لا بد مع ذلك أن يُقرِّ وأن يأتي بلازم ذلك وهو توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ بالعبادة وإخلاص الدين له عَزَّ وَجَلَّ.

القاعدة الثانية:

المتن: - القاعدة الثانية-

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلاَّ لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ. فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:3]، **وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ؛** قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: 18].

وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ:

1. شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ.
2. وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ.

فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلا اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:54].

وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكْرَمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ: مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255].

الشــرح:

وهذه هي القاعدة الثانية، وهي قاعدة عظيمة ومهمة جدا، وهي متممة ومكملة للقاعدة الأولىٰ، وذلك أننا عرفنا في القاعدة الأولىٰ أن المشركين الذين بُعث فيهم رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ كانوا يقرُّون بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن هذا لم يدخلهم في الإسلام.

إذن يأتي سؤال يطرح نفسه، إذا كانوا يُقرُّون بأن الذي يخلق ويرزق ويُنعم ويتصرف ويُدبر الأمر هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فلماذا يعبدون هذه الأصنام؟ إذا كانوا يُقرُّون أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تعطي ولا تمنع، لماذا يعبدونها؟ وهم يُقرُّون أنها لا تخلق ولا تملك ولا ترزق ولا تدبر الأمر؟ كما هو واضح في الدليل الذي ساقه المصنف -رحمه الله- في القاعدة الأولىٰ، إذن يأتي سؤال هنا يطرح نفسه: لماذا يعبدونها؟ لماذا يتجهون إليها بالسؤال؟ لماذا يبكون عندها ويتضرعون إليها، ويلحُّون عليها بالطلب ويصرفون لها أنواعا من العبادة؟ لماذا؟ ما السبب؟

يأتي الجواب في هذه القاعدة.

قال -رحمه الله- القاعدة الثانية: « أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلاَّ لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ»؛ المشركون يقولون: نحن لم نتجه إلىٰ هذه الأصنام ولم ندعو هذه الأصنام لأنها تخلق أو لأنها ترزق أو لأنها تُحي، هذه أمور ليست إلا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. إذن لماذا تعبدونها؟

يقولون: نحن لم نعبدها إلا للقربة والشفاعة. ما معنىٰ القربة؟ أي لتكون وسيلة لنا عند الله، لتكون واسطة لنا عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، نتوسَّط بها إلىٰ الله، نطلب منها هي أن تقربنا إلىٰ الله، هي في نفسها نعتقد أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تملك ولا تدبر ولكننا نعبدها من أجل أن تكون واسطة لنا عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، تقربنا من الله وتُدنينا منه عَزَّ وَجَلَّ، هذا هو السبب.

ولهذا قال: « أَنَّهُمْ -أي المشركون- يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلا لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ».

أعطنا الدليل علىٰ ذلك، ما الدليل علىٰ أن المشركين كانوا يعبدون الأصنام لهذا السبب بعينه، ولهذا الغرض بذاته؟

وقد عرفنا أن المصنف التزم في بداية هذه القواعد أن يذكر دليلها من القرآن، لا يأتي بشيء من نفسه؛ وإنما يذكر لك الأمر مضمومًا إليه دليله من القرآن، فهنا ذكر القاعدة الثانية وهي: أن المشركين كانوا يقولون أننا إنما دعونا هذه الأصنام ورجوناها وتوجَّهنا إليها من أجل القربة والشفاعة، أعطنا الدليل علىٰ ذلك..

قال: «فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا ..﴾ »، الآن يأتيك السبب، هل السبب إلاَّ: لأنها تخلق؟ إلاَّ: لأنها ترزق؟ إلاَّ: لأنها تُحي وتميت وتدبر الأمر؟ لا، إذن ما هو السبب؟ ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، لا لكونها خالقة، ولا لكونها رازقة، ولا لكونها مدبِّرة، هذه أمور لا تملكها، هم يعتقدون أنها لا تملك شيئا من ذلك. إذن لماذا عبدتموها؟ لماذا دعوتموها؟ لماذا توجهتم إليها؟ أجابوا قائلين: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، أي من أجل أن تُقرِّبنا إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ يقولون: نحن أهل ذنوب، وأهل خطايا وأهل إسراف علىٰ أنفسنا، وهذه فاضلة وكريمة ولها منزلة ومكانة عند الله، فنحن نعبدها ونتوجه إليها من أجل أن تقربنا إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: « دَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[1]»، سمَّىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هذه الأمور التي يمارسها هؤلاء ويقومون بها كفرًا بالله -جَلَّ وَعَلَا- (اتخاذ الأنداد والوسائط بينهم وبين الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- من أجل أن تقربهم إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ)، سمَّىٰ الله تَبَارَكَ وتعالىٰ ذلك كفرا بالله جَلَّ وَعَلَا.

إذن هذا **الأمر الأول** الذي أشار إليه المصنف وهو: القربة، أي أنهم إنما عبدوا هذه الأصنام من أجل القربة، أي من أجل أن تقربهم من الله عَزَّ وَجَلَّ.

الأمر الثاني هو: الشفاعة، ما دليله؟ أي ما الدليل علىٰ أنهم عبدوها لتكون شافعا لهم عند الله عَزَّ وَجَلَّ؟ ما الدليل علىٰ ذلك؟ قال: «قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ) -أي الكفار المشركون- (هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[2]»؛ أي نحن عبدنا هذه التي لا تضر ولا تنفع من أجل أن تكون شافعًا لنا عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

(1) الآية رقم: 3 من سورة الزمر.

(2) الآية رقم: 18 من سورة يونس.

إذن هذه قاعدة مهمة ينبغي أن يفهمها المسلم حتىٰ لا يُلبَّس عليه الأمر وحتىٰ لا يُوقع في الشرك من حيث أراد الحق والهدىٰ، حتىٰ لا يأتي بعض المبطلين ويُلبِّسون عليه هذه الحقيقة ويُوقعونه في الشرك بالله من حيث أراد لنفسه الخير والهدىٰ، ويقولون له هذه الأصنام أو هذه المعبودات أو هذه القباب والأضرحة إنما تُدعىٰ ويُتوجَّه إليها من أجل أن تكون واسطة بيننا وبين الله عَزَّ وَجَلَّ، تقربنا إليه زلفىٰ.

يقال له: هذا الأمر هو الذي لأجله عبد الكفار المشركون الأصنام وتوجهوا إليها بالدعاء والرجاء، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

ثم انطلق المصنف من هذا الموضع ليُبيِّن -رحمة الله عليه- أن الشفاعة نوعان، حتىٰ لا يلتبس باب الشفاعة وأمرها عند المسلم؛

قال: **وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ:**

1. شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ.
2. وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ.

ما معنىٰ شفاعة منفية وشفاعة مثبتة؟[1] منفية أي نفاها الله، مثبتة أي أثبتها الله.

عندما تقرأ في القرآن الآيات التي جاء فيها ذكر الشفاعة تجد أن في القرآن: شفاعة منفية وشفاعة مثبتة.

إذا كان في القرآن شفاعة منفية وشفاعة مثبتة، هل نحن نجعل الشفاعات كلها مثبتة أو ننفي ما نفىٰ الله منها ونثبت ما أثبته؟ انتبه، هنا قاعدة مهمة في باب الشفاعة، عندما تقرأ القرآن الكريم تجد في القرآن شفاعة منفية: نفاها الله، وشفاعة مثبتة: أثبتها الله.

(1) ((الشيخ يسأل الحاضرين وينتظر الإجابة: ما معنىٰ شفاعة منفية وشفاعة مثبتة؟ السؤال لكم: ما معنىٰ منفية ومثبتة؟ أنا أريد أن أفهم معنىٰ منفية ومثبتة)).

إذن الواجب علينا نحن عباد الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- أن ننفي ما نفاه الله، وأن نثبت ما أثبته الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أما -والعياذ بالله- أن يُثبت الإنسان من الشفاعة ما نفاه الله، هذا هو الباطل والضلال.

إذن هذه قاعدة وأصل مهم في هذا الباب؛ أن نميز بين الشفاعة المثبتة والشفاعة المنفية، ولأجل هذا قال المصنف -رحمه الله تعالىٰ-: « **الشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ:** شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ»؛

- شفاعة منفية: أي نفاها الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في القرآن.
- وشفاعة مثبتة: أي أثبتها -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في القرآن.

وإذا كان الأمر كذلك الواجب علينا أن ننفي من الشفاعة ما نفىٰ الله، وأن نثبت من الشفاعة ما أثبت الله، أما من يثبت شفاعة نفاها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فهذا عين الضلال والباطل.

قال -رحمه الله-:«**وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ:** شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ؛ فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلاَّ اللهُ» ؛

الشفاعة المنفية -أي التي نفاها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في القرآن- واجب علىٰ كل مسلم أن يعرفها، من أجل ماذا؟ من أجل أن يحذرها وأن يجتنبها وأن لا يقع فيها، لأن الله نفاها وأبطلها.

ما هي الشفاعة التي نفاها الله في القرآن؟ قال: «مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلاَّ اللهُ»؛ لو قال قائل لمخلوقٍ كائنًا من كان: أسألك أن تُدخلني الجنة أو أن تجيرني من النار، أو أن تثبِّتني علىٰ الإيمان، أو أن تعصمني من الخطأ، أو أن تهديني سواء السبيل، أو أن تجنبني مضلات الفتن، أو أن تصلح لي ذريتي، أو أن تمن علي بالزوجة الصالحة، أو تمن علي بالذرية الصالحة، أو أن تكتب لي رزقا وملكا...إلخ، من قدم هذه الطلبات لمخلوق من المخلوقات كائنا من كان، مهما علت درجته وبلغت منزلته -(ما كانت تُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلاّ الله)- هذه شفاعة نفاها الله في القرآن. ما الدليل علىٰ أن الله نفاها في القرآن؟

مضىٰ المصنف علىٰ طريقته يذكر الأمر بدليله، قال: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾»، هنا: ﴿وَلا

شَفَاعَةٌ﴾ نفي أو إثبات؟ نفي، هذه شفاعة نفاها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأبطلها، وهي ما يُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

هذا ضابط مهم ينبغي أن تحفظه -أيها الأخ المسلم-، هذا ضابط مهم تعرف من خلاله الشفاعة التي نفاها الله في القرآن الكريم؛ ما يُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لو وقف رجل أمام ضريح من الأضرحة أو قبة من القباب، وقال باكيا راجيا: يا سيدي فلان، أو يا فلان أرجو أن تمن علي بالولد والذرية، أنا عقيم، مثل ما كان بعض الجاهليين؛ تطوف المرأة حول شجرة وتقول: يا فحل الفحول أريد ولدا قبل الحول، يعني قبل أن تتم السَّنة، (يا فحل الفحول) تنادي الشجرة. من نادىٰ شجرة، أو ضريحا، أو قبة، أو وليا، أو نبيا، أو ملكا أو غير ذلك، يطلب منه الذرية الصالحة، الأنبياء عندما كانوا يطلبون الذرية لأنفسهم، ممن يطلبونها؟ اقرؤوا ذلك في آيات كثيرة من القرآن الكريم، في قصة إبراهيم وقصة زكريا وقصص كثيرة، فالأنبياء ما يكونوا يطلبون إلا من الله، من طلب الذرية أو الزوجة أو الهداية أو الصلاح أو الثبات أو الاستقامة أو كشف الكربات وإزالة الهموم، بعض الناس يخاطب بعض المقبورين يقول: يا كاشف الغم، يا مجيب المكروب، يا مغيث الملهوف، يا جابر الكسير أنا طريح عند بابك، أنا لائذ بجانبك إن لم تأخذ بيدي من الذي يأخذ بيدي، يناجي مخلوقا.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

هذه أمور لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يُلجأ فيها إلاَّ إليه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-.

إذن الشفاعة التي نفاها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في القرآن الكريم هي: ما يُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-.

(1) الآية رقم: 65 من سورة العنكبوت.

إذا كان الناس في الفلك وتلاطمت بهم الأمواج وأدركهم الغرق، من الذي ينقذهم؟ من الذي يوقف الرياح ويهدئ الأمواج ويسكِّن السفينة؟ من هو؟ الله رب العالمين.

والله ذكر عن أهل الشرك قال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[1] ؛ يعرفون وهم في تلاطم الأمواج وفي الشدائد أن الذي ينجي من الشدائد هو الله ليست الأصنام، فلهذا كانوا يخلصون لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الشدة ويشركون في الرخاء.

مع أن بعض المشركين في الأزمان المتأخرة الذين تعلقوا بغير الله من الأنداد والأولياء والقباب حتىٰ في الشدائد وفي الكربات يفزعون إلىٰ تلك المعبودات.

وقرأت في بعض الكتب أن جماعة كانوا في سفينة وكان معهم رجل مسن، علىٰ التوحيد والفطرة، فبدأت السفينة تتلاطم، وبدأ كلٌ يهتف بمعبوده: يا سيدي فلان، يا مولاي فلان، أدركني يا فلان... يناجون المخلوقين، التفت هذا الرجل وإذا كل من علىٰ السفينة ليس فيهم من ينادي الله، فمد يديه وقال: يا رب! أغرق.. أغرق فما علىٰ السفينة من يعبدك، كلهم يدعون غيرك.

المشركون الذين بُعث فيهم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ في مثل هذه الحالة، ما كانوا يلتجئون في الشدة إلاَّ إلىٰ من؟ في مثل هذه الشدة ما كانوا يلتجئون إلا إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لهذا قال الله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

إذن الشفاعة المنفية: ما يُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

أذكر لكم الآن مثالا ننظر فيه هل هو من الشفاعة المثبتة أو من المنفية، بعض الزوار يأتي إلىٰ المدينة ومعه خطابات من بعض الناس في بلده موجهة إلىٰ النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، خطاب موجه إلىٰ النبي، أنا اطلعت علىٰ شيء منها، أحدهم قرأت كلامه بلفظه، يقول: يا رسول الله، يا سيدي، يا مولاي... يا كذا -ألقاب يذكرها- أنا عبد كسير وفقيرٌ ذليل ومحتاج كذا وأنا لائذ بك وملتجئ إليك، فلا ترد طلبي ولا ترد حاجتي، ثم ذكر حاجته؛ ذكر أنه يريد -هذه طلباته بما قرأته

(1) الآية رقم: 5 من سورة طه.

بنفسي-: يريد زوجة صالحة و يريد (فيلا) جميلة ويريد مالاً، وذكر أشياء، لكن أحفظ منها: الزوجة الصالحة و(فيلا) جميلة ويريد أيضا مالاً، هذه كتَبها يطلبها من النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، وفي النهاية قال: وعنواني في المكان الفلاني.

أين هذا الكاتب لهذه الورقة من قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لنبيِّه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1] ؟

وهنا انتبه إلىٰ لطيفة عجيبة في هذه الآية في سورة البقرة وسور أخرىٰ، يقول الله تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ ويُتبع ذلك بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم كذا، لأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ واسطة في إبلاغ الدين ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾[2]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾[3]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾[4]، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

هنا في هذه الآية قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ لم يقل: (قل)، لا تواجد هنا (قل)، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لأن التوجه إلىٰ الله توجه بلا واسطة.

أينما تكون في الدنيا واحتجت إلىٰ حاجة سل الله بدون واسطة، لا تبحث عن وسطاء، مباشرة اتجه إلىٰ الله، اسأله مباشرة، ارفع يديك أينما كنت في الدنيا، حتىٰ لو كنت في كهف مظلم، وفي صخرة مُطْبقة عليك في مكان مظلم توجه إليه، يراك رب العالمين ويطلع عليك ويكشف كربتك ويزيل همك، ويرزقك من حيث لا تحتسب، الأمور بيده والملك ملكه والخَلْق خَلْقه - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

المثال الذي ذكرته في الخطاب الذي أشرت إليه، يندرج تحت أي شفاعة؟ مثبتة أو منفية؟ شفاعة منفية.

---

(1) الآية رقم: 186 من سورة البقرة.

(2) الآية رقم: 189 من سورة البقرة.

(3) الآية رقم: 222 من سورة البقرة.

(4) الآية رقم: 220 من سورة البقرة.

ما نخلط الأمور ونقول دلت الأدلة علىٰ أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ شفيعٌ للناس، أليس هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ قال لفاطمة ابنته: "يا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئا"[1] ؟ وقال ذلك لعمه العباس، ولعمته صفية ولقرابته، خاطبهم بذلك، وناداهم به -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.

إذن هذه شفاعة نفاها الله، نفاها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في القرآن، فيجب علينا أن نحذر من الوقوع في مثل هذا الأمر الذي نفاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في القرآن.

قال: «وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: -أي التي أثبتها الله في القرآن- هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ» -أنظر جمال العلم وجمال البيان والنصيحة- «الشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكْرَمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ: مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ»؛ الشفاعة المثبتة هي التي تُطلب من الله، الشافع يطلبها من الله، لأن الله قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[2] أي الشفاعة لله.

من أراد أن يشفع لابد أن يأذن الله له، بدون إذن الله لا يكون، قال تعالىٰ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[3]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[4]، فإذن هي ملكٌ لله، وبيده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وأيّ أحد كائنًا من كان يريد أن يشفع عند الله لابد أن يأذن الله له بالشفاعة، هذا أمر.

وأيضا من أراد لنفسه أن يكون الأنبياء والملائكة شفعاء له عند الله يطلبها منهم أو من بيده الشفاعة؟ انتبهوا، يطلبها منهم أي يتوجه إليهم في طلبها، يناديهم، أو يتوجه إلىٰ الله سُبْحَانَهُ

(1) صحيح مسلم (206)، صحيح البخاري (2753) (4771)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: "قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾. قال : "يا معشر قريش، أو كلمة نحوها، اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس ابن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد صلىٰ الله عليه وسلم، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئا".

(2) الآية رقم: 44 من سورة الزمر.

(3) الآية رقم: 255 من سورة البقرة.

(4) الآية رقم: 26 من سورة النجم.

وَتَعَالَىٰ؟ الشفاعة بيده، فمن أراد لنفسه أن يكون الأنبياء والملائكة شفعاء له عليه أن يقول في طلبه ودعائه: يا رب، يا الله -يسأل الله- شفِّع فيَّ أنبياءك، أو يقول: اللهم اجعل نبيك محمدا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شفيعا لي يوم القيامة، وهكذا نقول في دعائنا -نسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، نقول: اللهم اجعل نبيك محمدا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شفيعا لنا يوم القيامة، اللهم اجعلنا ممن يشفع لهم نبيك صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة، نسأل الله جَلَّ وَعَلَا، نطلب من الله، لأن الشفاعة مُلكٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهي لا تكون إلا بإذنه للشافع ورضاه -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- عن المشفوع له ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[1].

أرأيتم لو أن شخصا كافرا مشركا يعبد الأوثان ومات علىٰ عبادة الأوثان وشُفِع له عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، هل تنقذه هذه الشفاعة من النار؟ ويُخرَج بها من النار؟ قال تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[2].

وفي صحيح البخاري قصة عظيمة جدًّا تهز القلوب هزًّا، رواها الإمام البخاري في صحيحه، وهي قصة إبراهيم الخليل مع والده يوم القيامة ذكرها نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام، قال:"يلقىٰ إبراهيم الخليل أباه يوم القيامة فيقول له: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول والده: الآن لا أعصيك، ثم يقول إبراهيم الخليل، خليل الرحمن يقول: يا رب ألم تعدني ألاَّ تُخزني يوم يبعثون، وأيُّ خزي أخزىٰ من أبي الأبعد؟ فيقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: "إني حرمت الجنة علىٰ الكافرين" هذا جواب الله لإبراهيم -خليل الرحمن-، ثم يقول الله له: أنظر، فيلتفت وإذا والده صار علىٰ هيئة ذيخ -الذيخ ذكر الضباع- ملطخ بدمه، قال: فيؤخذ بقوائمه ويُطرح في النار"[3]. ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك عن والد إبراهيم.

(1) الآية رقم: 28 من سورة الأنبياء.

(2) الآية رقم: 48 من سورة المدثر.

(3)رواه البخاري (3350)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

واقرأ في آخر سورة التحريم قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[1]، ونوح لم يغني عن ابنه شيئا لأنه كان كافرا، ولم يغني عن زوجته شيئا لأنها كانت كافرة، إبراهيم لم يغني عن أبيه شيئا لأنه كان كافرا.

فالشفاعة لا تكون إلا بإذن الله للشافع ورضا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن المشفوع له.

واسمع حديثا رواه الإمام مسلم في صحيحه -ينفعك الله به- أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عنه سأل النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ سؤالا مهما وعظيما وكبيرا، قال: يا رسول الله من أحق الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ ماذا كان الجواب؟ قال: "من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه"[2].

وأيضا روىٰ مسلم في صحيحه عن نبينا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "لكل نبي دعوة مستجابة[3] وإني ادخرت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، وإنها نائلة إن شاء الله، من لا يشرك بالله شيئا"[4]، انتبه هنا: (من لا يشرك بالله شيئا) هل تنال كل أحد؟ "وإنها نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئا".

ولهذا أنبهك هنا: أن في موضوع الشفاعة ثلاثة فصول مهمة ينبغي أن تحفظها:

- الفصل الأول: أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله.
- الفصل الثاني: أن الشفاعة لا تكون إلا عن من رضي الله عنه، من رضي الله قوله وعمله.
- الفصل الثالث: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يرضىٰ إلا عن أهل التوحيد.

هذه ثلاثة فصول في الشفاعة احفظها ينفعك الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بها.

---

(1) الآية رقم: 10 من سورة التحريم.

(2) رواه البخاري (99)، من حديث أبي هريرة.

(3) ((ظاهر الحديث أنها دعوة واحدة مستجابة وهذا خلاف ما نعرفه عن دعوات الأنبياء فغالبها مستجاب؛ ولذلك أَوَّلَ العلماء هذه الكلمة علىٰ معانٍ كثيرة: كأن تكون هذه أهم الدعوات، أو تكون الدعوة علىٰ الأمة عامَّة بالإهلاك أو النجاة، أو الدعوة المجابة علىٰ سبيل القطع لا الرجاء، وغير ذلك))، ابن حجر: فتح الباري (11/ 96).

(4) رواه مسلم (199) والترمذي (3602)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

هذه الشفاعة بهذه الضوابط هي الشفاعة التي أثبتها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في القرآن.

قال المصنف: «وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكْرَمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ: مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ».

وجُمِع بين هذين الشرطين: الرضا والإذن في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[1].

الإذن للشافع، والرضا عن المشفوع له، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يرضىٰ إلا عن أهل التوحيد.

قال –رحمه الله–: «كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[2]».

هذا، والله أعلم.

وصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمْ علىٰ عبد الله ورسوله؛ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

(1) الآية رقم:26 من سورة النجم.

(2) الآية رقم: 255 من سورة البقرة.

القاعدة الثالثة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِين.

أما بعد ؛

يلاحَظ علىٰ عدد ليس بالقليل من الحجاج الإصابة بالسعال، وذلك بعد الجهاد الذي كانوا فيه في أداء هذه الطاعة العظيمة والعبادة الجليلة: حج بيت الله الحرام، وإنا لنرجو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن تكون هذه الإصابة وهذا التعب وهذه المعاناة رفعةً في درجات الجميع وسببًا لتكفير الخطيئات.

وقد جاء عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أحاديث عديدة تدل علىٰ أن المصائب كفَّارات، "وأن العبد ما أصابه من هم أو غم أو حزن حتىٰ الشوكة يشاكها إلا كُفِّر بها من خطاياه"[1]، وجاء عنه في هذا المعنىٰ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- أحاديث كثيرة، ولهذا ينبغي أن يُحتَسب هذا التعب وغيره من التعب في باب التكفير ورفعة الدرجات.

وكذلك نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ للجميع الصحة والعافية والأمن والإيمان والسلامة والإسلام، إنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ولي التوفيق، لا إله غيره ولا رب سواه.

نعم:

(1) الحديث: "ما يصيب المسلم، من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذىٰ ولا غم، حتىٰ الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه" رواه البخاري (5641) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

المتن: - القاعدة الثالثة-

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَهَرَ عَلَىٰ أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ؛ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَشْجَارَ وَالأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: 39].

وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: 37]. **وَدَلِيلُ الْمَلائِكَةِ؛** قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا..﴾ [آل عمران: 80]. **وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ؛** قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ..﴾ [المائدة: 116]. **وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ؛** قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: 57]. **وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ؛** قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: 19-20]، وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه قَالَ: "خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ..." الحَدِيث.

الشـرح:

هذه القواعد الأربع -كما عرفنا- قواعد مهمة للغاية ويحتاج كل مسلمٍ إلىٰ معرفتها، لأن معرفة هذه القواعد -بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- وضبطها يكون -بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- صِمام أمانٍ للمسلم من الوقوع في شبكة الشرك وحبائل أهله ومصائد الشيطان.

وقد جاء في التعوذات المأثورة عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: "أعوذ بك من الشيطان وشِرْكه"[1]، وفي رواية "وشَرَكه"[2] أي حبائله وشباكه التي يضعها للناس ليُوقِعهم في الشرك بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

والشرك -كما كنا عرفنا- شبكة، له جوانب كثيرة ومجالات متعددة، ومن لم يكن في هذا الباب علىٰ أصولٍ ثابتة وقواعد راسخة ربما زلت به القدم في أخطر أمر وأعظم باب.

ولهذا ينبغي علىٰ كل المسلم أن يكون علىٰ عناية تامة ورعاية قوية لهذه القواعد الأربعة العظيمة التي قررها الإمام -رحمه الله تعالىٰ- وذكر دلائلها وشواهدها من كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

كذلك ينبغي أن نعلم أن هذه القواعد الأربعة قواعد يَنْبَني بعضها علىٰ بعض ويترتَّب بعضها علىٰ بعض، وبفهمها مجموعةً تتحقق -بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- السلامة والعافية.

وكنا عرفنا من خلال القاعدة الأولىٰ التي قررها المصنف -رحمه الله تعالىٰ- أن الكفار الذين بُعث فيهم رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، كانوا يقرُّون بأن الخالق، الرزاق، المنعم، المتصرف، المدبر للأمور هو: الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحده، كانوا يقرُّون بذلك، وذكر الشيخ -رحمه الله تعالىٰ- الدليل علىٰ ذلك من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، ولم يُدخلهم ذلك في الإسلام.

فعُلم بذلك أن مجرد الإقرار بأن الله الخالق، الرزاق، المنعم، المتصرف، المدبر لشؤون الخلائق ليس كافيا وحده لدخول المرء بالإسلام، ما لم يعبد الله مخلصا له الدين، وإذا كان يقرُّ بأن الله الخالق الرزاق المنعم المتصرف ولا يُخلص الدين له -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- فهو مشرك بالله،

---

(1) رواه الترمذي وصححه (3392)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: يا رسول الله مرني بشيء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: "قل اللهم عالم الغيب والشهادة، فاطر السموات والأرض، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشِركه، قال قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك".

(2) قال النووي رَحِمَهُ اللهُ في «الأذكار» (1/179): ((قوله: "وشركه"، روي علىٰ وجهين: أظهرهما وأشهرهما: بكسر الشين مع إسكان الراء من الإشراك: أي: ما يدعو إليه ويوسوس به من الإشراك بالله تعالىٰ. والثاني: شَرَكه بفتح الشين والراء: أي: حبائله ومصائده، وأحدها: شَرَكه بفتح الشين والراء، وآخره هاء)) اهـ.

كافر بالله العظيم، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[1]؛ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾ أي: ربًّا رازقًا خالقًا منعِمًا متصرفًا مدبرًا، ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ أي: مشركون معه غيره -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في العبادة التي هي حقٌّ خالصٌ لله جَلَّ وَعَلَا، لا يجوز أن يُجعل لأحد معه فيه شركة.

ثم بعد ذلك ذكر -رحمه الله تعالىٰ- القاعدة الثانية؛ وهي أن المشركين الكفار عندما يُسألون: لماذا تعبدون هذه الأوثان وتدعونها من دون الله وأنتم تقرُّون أنها ليست خالقة ولا رازقة ولا منعمة ولا متصرفة، ولا تملك عطاء ولا منعا، ولا خفضا ولا رفعا، ولا موتا ولا حياة، ولا نشورا؟ لماذا تعبدونها وأنتم تقرُّون أنها لا تملك شيئا من ذلك؟ بل تقرُّون أنها نفسها مملوكة لله، خاضعة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، مربوبة له عَزَّ وَجَلَّ.

ولهذا؛ كانوا يحجون ويقولون في تلبيتهم في الحج: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك، هكذا يعتقدون، (تملكه): أي هو مملوك لك، هذا الشريك الذي جعلناه لك أنت يا الله تملكه، هو مملوك لك خاضع لك، (وما ملك): هو لا يملك، أي لا يملك لنفسه عطاء أو منعا أو خفضا أو رفعا، فضلا عن أن يملك ذلك لغيره، هم يقرُّون بذلك، فإذا سئلوا قيل لهم: لماذا تعبدونها وتدعونها وتتوجهون إليها وأنتم تعتقدون في قرارة نفوسكم أنها لا تملك، وأنها لا تخلق، وأنها لا ترزق؟ -والدليل علىٰ أنهم يقرُّون بذلك مرَّ معنا في القاعدة السابقة- فإذن لماذا تعبدونها؟ ماذا يقولون؟

يقولون: نحن نعبدها ونتوجه إليها لطلب القربة و الشفاعة؛ لطلب القربة: أي من أجل أن تقربنا إلىٰ الله، نحن بُعداء عن الله بالذنوب والمعاصي والخطايا والتفريط، فنحن نتوجه إليها لا لشيء إلا من أجل أن تقربنا إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، من أجل أن تكون واسطة بيننا وبين الله، من أجل أن تكون شفيعا لنا عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

(1) الآية رقم: 106 من سورة يوسف.

وذكر المصنف الدليل علىٰ ذلك و هو قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[1]، وذكر أيضا قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[2]، أي نحن نعبد هذا الذي لا يضر ولا ينفع لا لشيء إلا لأجل أن يكون شفيعا لنا عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

إذن القاعدة الأولىٰ أن الكفار كانوا يقرُّون بأن هذه الأصنام لا تخلق ولا ترزق ولا تحي ولا تميت ولا تعطي ولا تمنع ولا تخفض ولا ترفع...إلخ، ولم يُدخلهم هذا الإقرار بالإسلام، لأنهم لم يخلصوا العبادة لله، والشيء الثاني أن هؤلاء عندما يُسألون لماذا تعبدونها وأنتم تقرون أنها لا تملك شيئا، ولا تخلق، ولا ترزق؟ يقولون: نحن نعبدها وندعوها ونتوجه إليها من أجل أن تقربنا إلىٰ الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- زلفىٰ، ومن أجل أن تكون شفيعا لنا عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

هذه الممارسة التي يفعلها المشركون -والذي هذه خلاصتها- ماذا تسمىٰ في شرع الإسلام وفي دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؟ هل هم معذورون في هذا التوجيه الذي ذكروه؛ قالوا: نحن لا ندعوها لأننا نعتقد فيها أنها خالقة رزاقة، بل ندعوها لأجل أن تقربنا إلىٰ الله زلفىٰ، هل هذا مُخوِّلاً ومُسوِّغًا لإعفائهم من تبعة ذلك العمل وتلك الممارسة؟ حاشا وكلا؛ بل هم بذلك كفار مشركون، ولهذا قاتلهم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، واستباح أموالهم ودماءهم ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[3].

فإذن هذه القاعدة الأولىٰ والقاعدة الثانية، ثم تأتي قاعدة ثالثة مهمة جدا، وهي تَنْبَني علىٰ القاعدتين السابقتين، ألا وهي:

(1) الآية رقم: 3 من سورة الزمر.

(2) الآية رقم: 18 من سورة يونس.

(3) الآية رقم: 193 من سورة البقرة. الآية رقم: 39 من سورة الأنفال.

تأتي هذه القاعدة -أي الثالثة- جوابًا علىٰ تساؤل: هل الشرك الذي ذمه الله وحذَّر منه وعاب أهله وتوعدهم وتهددهم، هل هو خاص بمن عبد صنما؟ أو توجه إلىٰ الحجر؟ هل هو خاص بذلك، أو أنه شامل لكل ما عُبد من دون الله أيًّا كان ومهما كانت صفته؟ هذه قاعدة مهمة هنا في هذا الباب، لماذا؟

لأن بعض من ابتُلوا بالباطل والتوجه إلىٰ غير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالدعاء والرجاء والطلب والسؤال وإنزال الحاجات والطلبات والرغبات، إذا تُليت عليه مثل هذه الآيات لوعظه وتنبيهه وتذكيره وتحذيره مما هو عليه من ضلالٍ وباطل، ماذا يقول؟ يقول: هذه الآيات التي تُتلىٰ في القرآن تختص بمن توجه إلىٰ حجر وشجر، أما نحن لم نتوجه لا إلىٰ حجر ولا إلىٰ شجر -مثل هؤلاء المشركين- نحن توجهنا إلىٰ أولياء صالحين، أو إلىٰ أنبياء مقربين، أو إلىٰ ملائكة، نحن لم نتوجه إلىٰ شجر أو حجر، فكيف تُتلىٰ علينا هذه الآيات ونوعظ بها وهي لا تتناول العمل الذي نقوم به؟ لأن الآيات تتعلق بمن عبد الأصنام: اللات، العزىٰ، مناة، هبل... الخ، أما الذي يتوجه إلىٰ ولي من الأولياء، أو صالح من الصالحين، أو نبي من الأنبياء أو نحو ذلك، هذه الآيات لا تتناوله ولا علاقة لها به -هكذا يقولون-.

فهل هذا الزعم زعم صحيح أم هو زعم باطل فاسد أَوْدىٰ بأصحابه إلىٰ دركة الشرك وهلكة الباطل- والعياذ بالله-؟

فتأتي القاعدة الثالثة عند المصنف -رحمه الله- ليُرسي هذا الأمر ويجلِّيه ويزيل الغبش الذي قد يصاب به بعض الناس، ويُبتلىٰ به بعض الناس فيدخلون في وحل الشرك وشبكة الباطل من حيث يظنون أنهم لم يقعوا في هذه الهوة السحيقة ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[1]، لا يشعر أنه وقع في هذه الهوة السحيقة- والعياذ بالله-، فتأتي هذه القاعدة لتجلِّي هذا الأمر.

(1) الآية رقم: 31 من سورة الحج.

ولهذا ينبغي أن نُرعي هذه القاعدة بالنا واهتمامنا وأن نحسن فهمها وضبطها لأنها مهمة جدا في هذا الباب.

يقول -رحمه الله- في القاعدة الثالثة: « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ ظَهَرَ عَلَىٰ أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ»؛

انتبه للكلام: « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ ظَهَرَ عَلَىٰ أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ»، ما معنىٰ متفرقين في عباداتهم؟ أي لم تكن عبادتهم مختصة بمعبودات معينة، مثل: الأحجار أو الأصنام، لم تكن عبادتهم مختصة بذلك، أبدا، بل كانوا متفرقين في عبادتهم، يعبدون أشياء كثيرة جدا. ما هي هذه الأشياء؟

فصَّل الشيخ- رحمه الله- ثم ذكر علىٰ كل ما ذكره من تفصيلٍ الدليل عليه من القرآن، قال: «مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَشْجَارَ وَالأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ»، إذن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ بُعث في أقوام يشركون، وشركهم ليس منحصرا في شرك معين من الشرك كعبادة الأصنام؛ بل إن شرك من بُعث فيهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ شرك متنوع، و الأبواب التي سلكها هؤلاء المشركون أبواب متفرقة، منهم من يعبد الملائكة، منهم من يعبد الأنبياء، منهم من يعبد الأولياء والصالحين، منهم من يعبد الأشجار والأضرحة ونحو ذلك، وكل هؤلاء ظهر عليهم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ مُعلنًا دعوة التوحيد -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْه- والدعوة إلىٰ الإخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ونبذ الشرك واضطراحه أيًّا كانت صفته وكان نوعه.

فهذه القاعدة تأتي جوابًا وإزالةً لتلك الشبهة التي قد يروِّجها أهل الباطل.

وتقرير القاعدة أن من ظهر عليهم-عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ- وبُعث فيهم كانوا متفرقين في العبادة، منهم من يعبد الملائكة، منهم من يعبد الأنبياء والصالحين، منهم من يعبد الأشجار والأحجار، منهم من يعبد الشمس والقمر.

وتقول هنا: هات الدليل علىٰ ذلك، فيأتي المنصف -رحمه الله- بالدليل علىٰ كل ذلك من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ؛

أولا قال- رحمه الله-: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه﴾[1] »، هذا فيه أولا استشهاد لقول المصنف -رحمه الله-: «وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ» أي أجمعين بأنواع الشرك المختلفة التي كانوا عليها، فهؤلاء كلهم قاتلهم، لم يفرِّق عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ بين من عبَد حجرا أو عبد نبيًّا كعيسىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، أو ملَكا من الملائكة كجبريل أو غيره من الملائكة -عَلَيْهِمُ السَّلَامْ-، لم يفرق بين لا هؤلاء ولا هؤلاء، كلهم يشملهم قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه﴾[2]، قاتلهم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ أجمعين، دعاهم إلىٰ هذا الإسلام، وبعث الدعاة وأرسل البعوث وأرسل الرسل ودعا هؤلاء؛ دعا الذين يعبدون الملائكة، ودعا الذين يعبدون النجوم، ودعا الذين يعبدون الأنبياء، ودعا الذين يعبدون الأصنام، كل أولئك دعاهم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ إلىٰ نبذ هذا الشرك، وإلىٰ إخلاص العبادة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ثم بدأ يسوق الأدلة دليلا دليلا علىٰ ما ذكر سابقا من تفرق المشركين وتنوع شركهم.

قال: «وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ»؛ قوله: «وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ» أي: والدليل علىٰ أن من الناس من كان يعبد الشمس والقمر ممن ظهر عليهم النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ وبُعث فيهم، الدليل علىٰ ذلك قوله الله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[3]، ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ﴾: لأن هناك من كان يعبد الشمس والقمر.

بل إن من رعاية نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ للتوحيد وحفاظه لجانبه وسدِّه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهْ- لذرائع الشرك نهىٰ أمة الإسلام -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهْ- أن يُصلُّوا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مخلصين عند وقت طلوع الشمس ووقت غروبها، لأن هذا الوقت كان عُبَّاد الشمس

(1) الآية رقم: 39من سورة الأنفال.

(2) الآية رقم: 39من سورة الأنفال.

(3) الآية رقم: 37من سورة فصلت.

يتحرون عبادتها فيه، عند أول طلوع الشمس وعند وقت الغروب عُبَّاد الشمس كانوا يتحرون هذين الوقتين، فيعبدون الشمس في هذين الوقتين، ولهذا جاء النهي الغليظ والمؤكد عن نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ من أن نصلي لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مخلصين في هذين الوقتين.

وذكر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ أن "الشمس تطلع بين قرني شيطان"[1]، وهذا فيه أن الشيطان له فتنة في هذا الوقت لصرف القلوب عن التوحيد إلىٰ الشرك، والتعلق بهذه المخلوقات الكبيرة، البديعة، العجيبة، العظيمة، التي خلقها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

عندما تضعف بعض القلوب عن راسخ الإيمان وعميق التوحيد قد تتعلق بمثل هذه المخلوقات الكِبار وتلجأ إليها، فتدهشها الشمس بغروبها وطلوعها، فتتوجه إليها بحاجاتها ورغباتها، فقطع النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ الطريق وسدَّ ذريعة الشرك، ونهىٰ أن تُتَحرَّىٰ العبادة في هذين الوقتين: وقت طلوع الشمس ووقت غروبها، ولو كان الإنسان لا يقصد بعبادته إلا وجه الله مخلصا له نهاه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ عن العبادة في هذين الوقتين، وجاء عنه في ذلك أحاديث كثيرة، لماذا؟ كل ذلك محافظة علىٰ التوحيد وصيانة لجانبه وسدّا للذرائع التي تفضي إلىٰ الشرك بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

هذا إذن من الدلائل والشواهد البيِّنات أن من بُعث فيهم -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهْ- كان منهم من شركه بالله عبادةٌ للشمس وللقمر.

والنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ خشي علىٰ بعض الأمة أن يتلبَّسوا بشيء من هذا الباطل، فكان من صيانته لجناب التوحيد وسده لذرائع الشرك أن نهىٰ الأمة عن عبادة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في هذين الوقتين؛ سدًّا لذريعة الشرك وأيضا ربأ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ بالأمة أن يكون فيه شيء من المشابهة ولو في الصورة الظاهرة لعَبَدة الشمس والقمر، عَبَدة هذه المخلوقات، فنهىٰ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهْ- عن العبادة في هذين الوقتين صيانةً للتوحيد وحفاظًا لجانبه وسدًّا لذرائع الشرك والباطل.

(1) رواه مسلم (612) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

إذن هذا دليل ساقه المصنف من القرآن الكريم شاهدا علىٰ أن من بُعث فيهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ كان منهم من يعبد الشمس والقمر.

ما الدليل علىٰ أن منهم من كان يعبد الملائكة؟

قال: « قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا﴾[1]» أي من دون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهذا شاهد ودليل علىٰ أن من الناس من اتخذ الملائكة أربابا، وعبدوا الملائكة مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ودعوهم وسألوهم وعرضوا عليهم حاجاتهم وطلباتهم، فكان من الناس من عبد الملائكة، والملائكة جند مكرمون وعباد مسخرون، لا يستحقون من العبادة ولا مقدار ذرة.

ولهذا؛ في سياق إبطال الشرك في القرآن الكريم في سورة سبأ، ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ ضعف الملائكة، مُبيِّنا جَلَّ وَعَلَا بذلك أن الملائكة مع ضخامة أجسامها وقوتها، وعظم قدرتها التي منحها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إياها، فهي ضعيفة مخلوقة مربوبة لا تستحق من العبادة شيء، وتأمل هذا المعنىٰ العظيم في الآيات الواردة لإبطال الشرك، في سور سبأ، وهي قول الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (22) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) – أي الملائكة– (قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (23)﴾[2].

يُفسِّر هذه الآية قول نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ في الحديث الصحيح: "إذا تكلم الله بالوحي خرَّت الملائكة صعقة خَضعانًا لقوله"[3]، هذه الملائكة الضخمة الأجسام العظيمة القوة والقدرة إذا تكلم الله بالوحي خرَّت صعقة، يُغشىٰ عليها ويُغمىٰ عليها، خَضعانًا لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهي مخلوقة ضعيفة، مربوبة لله، مُسخَّرة لله ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[4]، ولا

(1) الآية رقم: 80 من سورة آل عمران.

(2) الآيات: (22– 23) من سورة سبأ.

(3) اختلفت رواياته وتعددت متونه ولمح لمثل هذه الرواية النحاس في معاني القرآن، والصحيح فيها "إذا قضىٰ الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله" رواه البخاري (7481) (4800) (4701) من حديث أبي هريرة.

(4) الآية رقم:6 من سورة التحريم.

يستحقون من العبادة أي شيء، ولهذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ في شأن الملائكة: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾[1]، الملائكة لا يقولون ذلك، الملائكة عِباد مكرمون يعبدون الله عَزَّ وَجَلَّ، الليل والنهار لا يفترون ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، هذا شأن الملائكة.

وقد وُجد في الناس من عبدهم، وتوجه إليهم في طلباته ورغباته، وجعلهم واسطة بينه وبين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في عرض حاجاته، فبُعث النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ لإبطال هذا الشرك –اتخاذ الملائكة أربابا وأندادا وشركاء لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في العبادة-.

ثم ذكر- رحمه الله- دليل الأنبياء، أي الدليل علىٰ أن من المشركين الذين بُعث فيهم –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ- من كان يعبد الأنبياء فذكر قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[2]، إذن كان من المشركين الذين بُعث فيهم –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ- من كان يعبد الأنبياء من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، مثل من كانوا يعبدون عيسىٰ ويتوجهون إليه بالدعاء والطلب والرغبات ويعبدون أمه، وأمه ليست نبيَّة وإنما هي صالحة من الصالحات ومن خيار نساء العالمين، فكانوا يعبدون الأنبياء والصالحين، الأنبياء مثل عيسىٰ، والصالحين مثل أمه، كانوا يعبدونها من دون الله، وجعلوهما شريكا لله ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾[3]؛ جعلوا المستحقين للعبادة ثلاثة: الله ومريم وعيسىٰ، وعبدوا هؤلاء الثلاثة كلهم، عبدوا الله، وعبدوا معه عيسىٰ، وعبدوا معه أمه.

إذن من بُعث فيهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ منهم من كان شركه عبادةً للأنبياء وعبادةً للصالحين.

---

(1) الآية رقم: 29 من سورة الأنبياء.

(2) الآية رقم: 116 من سورة المائدة.

(3) الآية رقم: 73 من سورة المائدة.

ثم قال- رحمه الله-:« **وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ؛** قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[1]».

هذه الآية دليل واضح علىٰ أن بُعث فيهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ منهم من كان يعبد الصالحين من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، وذلك أن معنىٰ الآية وهي: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ تتعلق ببيان حال طائفة من المشركين، واقرأ الآية التي قبلها، وهي قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾[2]، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي أولئك الذين يدعوهم هؤلاء المشركون المتخذون الأنداد قومٌ هداهم الله عَزَّ وَجَلَّ وعبدوا الله وأخلصوا الدين له -جَلَّ وَعَلَا-، ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ وهذه نزلت في قومٍ من المشركين كانوا يعبدون نفرًا من الصالحين، مثل: عُزَيْز وعيسىٰ وبعض الصالحين من عباد الله، فالله ينهاهم عن هذا الشرك بقوله سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ أي هؤلاء الذين تدعونهم وتعبدونهم هم أنفسهم عبادٌ لله، خاضعون لله، متذللون بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[3] هم عبادٌ لله، خاضعون لله عَزَّ وَجَلَّ، عبادٌ لألوهيته، مطيعين له، قائمين بعبادته، خاضعين له، يرجون رحمته ويخافون عذابه، فكيف تتوجهون إليهم؟ فالسياق جاء في إنكار الشرك علىٰ قومٍ من المشركين كانوا يعبدون نفرًا من الصالحين، سواء نفرا من الصالحين من الإنس -علىٰ قولٍ من المفسرين- أو نفرا من الصالحين من الجن، لأن الآية قيل - في بعض أقوال أهل العلم- أنها نزلت في قومٍ من الإنس كانوا يعبدون نفرا من الجن، فأسلم الجنيُّون وبقي الإنسيُّون علىٰ عبادتهم، فأنكر الله عليهم هذا الشرك

---

(1) الآية رقم: 57 من سورة الإسراء.

(2) الآيات: (56- 57) من سورة الإسراء.

(3) الآية رقم: 194 من سورة الأعراف.

قائلا لهم: إن هؤلاء الجنيُّون الذين تعبدونهم من دون الله أسلموا وأخلصوا العبادة لله، يرجون رحمة الله ويخافون عذابه، وأنتم لا تزالون مقيمين علىٰ عبادتهم.

إذن الآية واضحة في إنكار شرك من كان شركه عبادة الصالحين و الأولياء.

يُقال لمن عبد وليًّا أو عبد صالحًا: إن هذا الذي تعبده وتلجأ إليه هو نفسه عبد لله، يرجوا الله، ويطمع في مغفرة الله ورحمته، وإن كان مات فإن هذه الأمور -رجاء الرحمة والعبادة وابتغاء الوسيلة- انقطعت بموته، "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث"[1]، لا يستطيع أن يقوم بعبادة ولا يستطيع أن يقوم بدعاء أو برجاء أو بخوف أو بأي أمر من الأمور التي هي مجال الإنسان للقيام بها في حياته الدنيا، أما إذا مات انقطع عمله، لا يستطيع أن يدعو لنفسه ولا لغيره، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ كما في صحيح البخاري لأم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: "إن كان ذاكِ وأنا حي استغفرت لك"[2] يعني وأنا علىٰ قيد الحياة استغفرت لك، أما بعد الموت لا يستغفر -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ- لأحد، ولا أيضا غيرهم من الذين توفاهم الله -عَزَّ وَجَلَّ- يستغفرون لأحد، ولهذا قال: "إن كان ذاك وأنا حي استغفرت لك".

أما ما يستدل به بعض الناس من أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قال: "تُعرض عليَّ أعمالكم، وأنا ميت، حسنها وسيئها، فإذا رأيت حسنها حمدت الله، وإذا رأيت سيئها استغفرت الله لكم"[3] هذا حديث غير صحيح، فيستدل به بعض الناس ويتركون الحديث الذي في صحيح البخاري، الحديث الذي يقول فيه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: "إن كان ذاك وأنا حي استغفرت لك" أي بعد الموت لا يستغفر - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ- لأحد.

---

(1) رواه مسلم(1631) من حديث أبي هريرة، بلفظ: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له".

(2) رواه البخاري (5666) (7217)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(3) قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ بعد أن ساق جميع طرق الرواية في الضعيفة (2/ 404 -406) : ((وجملة القول أن الحديث ضعيف بجميع طرقه، وخيرها حديث بكر بن عبد الله المزني وهو مرسل، وهو من أقسام الحديث الضعيف عند المحدثين، ثم حديث ابن مسعود، وهو خطأ، وشرها حديث أنس بطريقيه)) اهـ.

ولهذا؛ الصحابة بعد موته قالوا -كما جاء عن عمر-: **"اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا والآن نتوسل إليك بعم نبينا"**[1]، لماذا؟ -والمراد الدعاء: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا والآن نتوسل إليك بعم نبينا؛ قم يا العباس ادع الله لنا- في زمن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ ما كانوا يتوسلون بالعباس أو بغيره، كانوا يتوسلون بدعاء النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، يدعو لهم هو -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- ويؤَمِّنون علىٰ دعائه، أما بعد موته انقطع هذا الأمر، لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ : "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث".

الشاهد، أن هذا دليل الصالحين. ما دليل الأشجار والأحجار؟

قال: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾[2]» هذه معبودات كان يعبدها المشركون ويتوجهون إليها؛ اللاَّت والعزَّىٰ ومناة الثالثة الأخرىٰ. اللاّت ما هي؟ والعزَّىٰ ما هي؟ ومناة الثالثة الأخرىٰ ما هي؟

اللاَّت: هذه صخرة -وقيل قبر، جاء هذا المعنىٰ عن ابن عباس وغيره- لرجل كان يلُتُّ السَّويق؛ يعجنه ويهيئه ويخبزه ويجهزه ضيافةً وقِرىٰ للحجاج، فكان معروفا بذلك، رجل يُعرف بهذا: يعجن السَّويق ويهيئه ويخبزه ويقدمه ضيافةً للحجاج الذين يتوافدون إلىٰ مكة.

لما مات بنوا علىٰ قبره وعبدوه، أخذوا يجعلونه واسطة، قالوا لأن هذا رجل معروف بيننا بهذا الكرم وهذه الضيافة، فعبدوا قبره، وقيل عبدوا الصخرة التي كان يعجن عليها السَّويق، قالوا: هذه صخرة فاضلة، سنوات طويلة يُعجن عليها السَّويق، ما أجمل أن تكون واسطة بيننا وبين الله، سنوات طويلة والسَّويق يُعجن عليها ويُقدم للحجاج ضيافة لها، إذن هذه الصخرة فاضلة، مميزة، لها خاصية، فما أجمل أن نجعلها واسطة بيننا وبين الله، فجعلوها واسطة. وقيل أنهم جعلوا قبره واسطة بينهم وبين الله عَزَّ وَجَلَّ، يأتون عند القبر ويبكون ويعرضون الحاجات والرغبات ويتحرون الدعاء عند قبره، أو عند هذه الصخرة.

---

(1) صحيح البخاري (1010) (3710) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) الآيات: (19-20) من سورة النجم.

والعُزَّىٰ: شجرة كان يقصدها المشركون، وكان يزيد الشرك والتعلق بهذه الشجرة أن جنية كانت مختفية وإذا جاءوا عند هذه الشجرة خاطبتهم الجنية فيُخدعون بذلك، لأن الشجر لا يُعرف أنه يخاطب الناس، فيُخدعون بذلك ويُستدرجون، فتخاطبهم هذه الجنية وتذكر لهم أمورا، وربما سألوها عن مفقود أو ضائع فأشارت إلىٰ مكانه أو دلتهم علىٰ موضعه أو نحو ذلك، ففُتنوا فصاروا يتوافدون عليها من الأنحاء العديدة يعبدون هذه الشجرة، حتىٰ بعث النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ إليها خالد بن الوليد فقطع الشجرة وقتل الجنية، كما جاء في كتب السِّير والأخبار. فالعُزَّىٰ شجرة كان يعبدها المشركون.

ولا يزال مثل هذا الشرك يوجد، من الناس من يتعلقون بأشجار ويعتقدون أنها أشجار مباركة، ولهذا يذهبون ويعلقون عليها الخيوط، يتمسَّحون بها، يضع صدره علىٰ الشجرة يطلب منها بركة، يطوف علىٰ الشجرة..

كان قديما، وقد أدرك المصنف -رحمه الله- شيئا من ذلك ورآه، كانوا يطوفون علىٰ شجرة؛ تذهب النساء وتطوف علىٰ الشجرة، المرأة التي لا تلد تذهب وتطوف علىٰ الشجرة وتقول: يا فحل الفحول أريد ولدا قبل الحول، تنادي الشجرة، لا تنجب لسنوات، فتقول لها النساء هناك شجرة مباركة في المكان الفلاني، اذهبي وطوفي بها أشواطا، واطلبي منها، فهي شجرة مباركة، وربما قالوا لها فلانة جربت وفلانة فعلت.. وهكذا يستدرج الناس إلىٰ الشرك والباطل -والعياذ بالله- فكن يذهبن إلىٰ تلك الشجرة ويطفن عليها، ويقلن: يا فحل الفحول أريد ولدا قبل الحول.

وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ في الحديث الصحيح: "لا تقوم الساعة حتىٰ تضطرب أَليات نساء دَوْسٍ علىٰ ذي الخَلَصَة"[1]؛ (ذو الخَلصة): صنم، وثن من الأوثان. (تضطرب أَليات النساء) أي تضرب ألياتهن بعضا من شدة تزاحمهن علىٰ الطواف علىٰ ذي الخَلَصة، وهذا فيه إشارة إلىٰ كثرة النساء الطائفات علىٰ ذي الخَلَصة.

(1) رواه البخاري (7116) ومسلم (2906) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ: "لا تقوم الساعة حتىٰ يعبد فئام من أمتي الأوثان"[1]، والأحاديث في هذا الباب كثيرة وثابتة عن نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ.

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ: "لتَتَّبِعنَّ سَنَن من كان قبلكم". انتبه هنا: مَن قبلنا فيهم من عبد الملائكة، فيهم من عبد الأنبياء، وفيهم من عبد الأولياء، وفيهم من عبد الأشجار، وفيهم من عبد الصالحين. ونبينا قال: "لتَتَّبِعنَّ سَنَن من كان قبلكم، شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه"[2]، فإذن هذه أمور خطيرة جدًّا.

النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ عندما قال لنا: "لتَتَّبِعنَّ سَنَن من كان قبلكم" هل قالها لنا مجرد معلومة نسمعها ونعرفها؟ أو من أجل أن نحذر ونحتاط لأنفسنا من هذا الباطل الذي كان عليه من قبلنا ونحذر علىٰ المجانبة منه والبعد عنه؟ خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامْ قال في دعائه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (36)﴾.

ثم ذكر دليل الأشجار والأحجار قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾، مناة هذا أيضا حجر وصنم من الأصنام كان يعبده أهل الجاهلية، وكان بين مكة والمدينة.

ثم ختم بحديث أبي واقد الليثي، وهذا حديث عظيم جدًّا في هذا الباب. يُبيِّن لنا هذا الحديث خطورة حال الإنسان عندما يكون حديث عهدٍ بإسلام أو تكون معلوماته الإسلامية ضعيفة أو يكون نشأ في مجتمع تكثر فيه الجاهلية، فهنا فيه خطورة يُبينها ويُجليها لنا هذا الحديث؛ قال أبو واقد الليثي: "خرجنا مع النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ إلىٰ حُنَين ونحن حُدَثاء عهد بكفر" هذا اعتذار قدَّمه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من المقالة التي قالوها، قال: "ونحن حُدَثاء عَهد بكفر" يعني عهدنا بالكفر كان قريبا، كنا علىٰ الكفر من وقت قريب، والذي علىٰ الكفر من وقت قريب معلوماته الشرعية عن الإسلام وعن التوحيد وعن تفاصيل الشرع تكون ضعيفة، وربما في الوقت نفسه

(1) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء» (2/ 289) من حديث ثَوْبَان.

(2) رواه البخاري (7320) عن أبي سعيد الخدري.

تكون بعض الأمور التي كان عليها في الجاهلية لم يتبين له ولم يظهر له أنها مصادِمة للإسلام الذي اعتنقه ودخل فيه، ومثل هذا الأمر من ينشأ في مجتمعات تكثر فيها الجاهلية ويكثر فيها دعاة الضلال وأئمة الباطل ربما ينشأ لا يعرف بعض الأمور ولا يفهمها ولا يدركها ويقع في الشرك والضلال من حيث أنه يظن أنه علىٰ التوحيد والإسلام.

يقول أبو واقد: "خرجنا مع النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ إلىٰ حُنينٍ"، انظر من هم هؤلاء الرجال، من هم هؤلاء الرجال؟ -هذه الكلمة مهمة- هؤلاء رجال خرجوا مع النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ بائعين أنفسهم في سبيل الله، معهم السيوف يقاتِلون، منهم من سيُقتل ويموت في سبيل الله، خرجوا مقاتِلين في سبيل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ثم يقولون هذه المقالة التي بُيِّنت في الحديث.

قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "ونحن حُدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة، يَعكُفون عندها وينوطون بها أسلحتهم"، جاء في بعض الروايات: "فمررنا بسدرة"، وهم في الطريق مرُّوا بسدرة أي مرُّوا بشجرة، لمن هذه الشجرة؟ للمشركين، ماذا يفعلون عندها؟ قال: " يَعكُفون عندها وينوطون بها أسلحتهم "، هذا نوع من الشرك؛ الشرك من أنواعه ومجالاته العكوف عند القبر أو عند الشجرة أو عند المكان الذي يُعبد ويُقصد ويُتَوجه إليه.

(يعكف عنده): أي يبقىٰ عنده مدة طويلة، ساكنًا خاضعًا متذلِّلاً راهبًا، هذه عبادة، ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾[1]، العكوف: عبادة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، (يعكفون عندها): يبقىٰ قائما ساعة، ساعتين، أقل أو أكثر، ساكنا خاشعا، ربما لا يتكلم بكلمة، فقط مجرد وقوف، وهو يعتقد في قرارة نفسه أن عكوفه هذا يجلب له بركة، لأن هذه الشجرة مباركة فبركتها تنعكس عليه وتنجذب إليه ويعود إليه نصيب منها، فيعكفون عندها، هم بأشخاصهم.

وأيضا (ينوطون بها أسلحتهم) أي: يعلقون أسلحتهم، لماذا؟ لأنهم يعتقدون أن السلاح إذا عُلِّق علىٰ هذه الشجرة المباركة- بزعمهم- بورك السلاح وأصبح قويًّا في القتال. فكانوا يعتقدون هذه العقائد؛ يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم.

(1) الآية رقم: 187 من سورة البقرة.

"يُقال لها: ذات أنواط"، لماذا سموها بهذا الاسم؟ (ذات أنواط): لكثرة ما يُعلِّقون عليها من أسلحتهم -ينوطون أي: يُعلِّقون- رجاء البركة وطلبها.

قال:"فمررنا بسدرة -أي مرُّوا بسدرة أخرىٰ غير تلك- فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أَنْوَاط كما لهم ذات أنواط"؛ يعني اجعل لنا نحن، خصِّص لنا شجرة معينة نمارس عندها مثل هذه الممارسة؛ نعكف ونعلق السلاح. من أجل ماذا العكوف؟ ومن أجل ماذا يُعلَّق السلاح؟ كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية طلب البركة.

فقالوا: "اجعل لنا ذات أَنْوَاط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الله أكبر، إنها السُّنَن-وفي رواية قال: "سبحان الله"-، قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، -ثم قال-: لتتبعن سَنَن من كان قبلكم"[1].

انظر هذا النصح العظيم والتحذير البالغ من نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، وخُذ نفسك مأخذ الحزم والحيطة والحذر، "قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[2]، لتتبعن سَنَن من كان قبلكم"، أي: "شبرا شبرا، ذراعا ذراعا حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه".

بل جاء عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ في بعض الروايات في غير هذا الحديث "حتىٰ لو وُجد فيهم من يأتي أمه علانية لوُجد في أمتي من يأتي أمه علانية"[3].

---

(1) الحديث: "عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أَنْوَاطٍ، قال: فمررنا بالسِّدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: إنها السُّنَن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم". رواه الترمذي في سننه (2180) وأحمد في مسنده (21390) و صححه الألباني في «جلباب المرأة المسلمة» (202).

(2) الآية رقم: 138من سورة الأعراف.

(3) رواه الترمذي في سننه (2641) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

يجب علىٰ الإنسان أن يحذر، خاصة في زماننا هذا؛ هذا الزمن انفتح علىٰ الناس انفتاح عجيب حال المجتمعات الكافرة وأمم الكفر، وأصبح الناس من خلال القنوات الفضائية ومن خلال شبكة العنكبوت (الانترنت)، والإنسان جالس في بيته، والمرأة جالسة في بيتها ينفتح عليها العالم كله، وترىٰ وثنيَّة الوثنيِّين وشرك المشركين وضلال المضلين وشُبه المبطلين، ويكون هذا المسكين الذي ينظر هذا كله بضاعته الشرعية وعلمه بالتوحيد علم ضعيف محدود، ثم يرجو لنفسه سلامة.

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إنَّ السَّفِينَةَ لَا تَمْشِي عَلَىٰ اليَبَسِ[1]

أَلْقَـاهُ فِي اليـمِّ مَكْتُـوفًا وَقَـالَ لَـهُ ... إِيَّـاكَ إِيَّـاكَ أَنْ تَبْتَـلَّ بِالمَـاءِ[2]

فالشاهد أن الأمر جد خطير! وأن الأمر -كما قرر الشيخ رحمة الله عليه-: أن الشرك الذي كان عليه المشركون في زمن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ ليس عبادة أصنام فقط.

وبعض الناس عندما يقرأ الآيات التي فيها التحذير من الشرك ينصب في ذهنه فقط -وهذه من الشُّبه التي أُدرِجت علىٰ الناس-: اللاَّت والعُزَّىٰ ومناة، ويقول: الحمد لله، هذه أصنام ليست موجودة وحُطِّمت في زمن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ ولا يوجد شرك، بل بعض الناس وُجد من أئمة الضلال أنه قال: أمة محمد إلىٰ قيام الساعة لن يوجد فيها شرك، هذا قيل وكُتب في بعض الكتب ولُبِّس فيه علىٰ بعض الجُهَّال، وأصبح بعض الجُهَّال يمارس ممارسات من الشرك ويقول لهم هؤلاء: أمة محمد معصومة من الشرك، وربما استدلوا ببعض الأحاديث ووضعوها في غير

(1) قال أمير المؤمنين هارون الرشيد ذات مرة لأبي العتاهية عظني بأبيات من الشعر وأوجز؛ فقال:

لا تأمن الموتَ في طرفٍ ولا نفس ::: ولو تمتعت بالحُجّاب والحرسِ

واعلم بأن سهام الموت صائبةٌ ::: لكل مدَّرعٍ منها ومتترسِ

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ::: إن السفينة لا تجري علىٰ اليبسِ

(2) البيت يُنسب إلىٰ الفيلسوف الصوفي الحَلَّاج، كما يُنسب إلىٰ المفكر الصوفي عبد الغني النابلسي الدمشقي.

بابها، مثل حديث :"إن الشيطان يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب"[1]، يستدلون بهذا الحديث ويتركون أحاديث محكمة صريحة في أن العبادة ستوجد، مثل: "لا تقوم الساعة حتىٰ يعبد فئام من أمتي الأوثان"، هل أوضح من هذا شيء؟ ومثل قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ: "لتَتَّبعنَّ سَنَن من كان قبلكم، شبرا شبرا"، ونحن عرفنا من كان قبلنا -بهذه الآيات البيِّنات- فيهم من عبد الأنبياء، وفيهم من عبد الصالحين، وفيهم من عبد الملائكة.

ولهذا؛ تقريرًا لهذا الأمر أعيد عليكم:

لو قيل لك: هل سيوجد في أمة النبي -هذه الأمة- من سيعبد الملائكة، وسيعبد الأنبياء وسيعبد الصالحين، وسيعبد الأشجار، وسيعبد الشمس، وسيعبد القمر؟ هل سيوجد من سيفعل ذلك أو لا يوجد؟ ماذا تقول؟ يوجد، لماذا؟ لدليلين:

الدليل الأول: أن هذه آيات بيِّنات في القرآن الكريم أن هذه الممارسات كانت موجودة فيمن كان قبلنا، هذا الأول.

الدليل الثاني: أن نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ قال: "لتتبعن سَنَن من كان قبلكم شبرا شبرا ذراعا ذراعا، حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه".

ولا يعني ذلك وجوده في الأمة بأسرها؛ يوجد في أفراد من الناس وآحاد من الناس و بعض من يضلون سواء السبيل، يوجد فيهم من ينحرف هذا الانحراف.

فإذا علمتَ هذا العلم وفهمتَ هذا الفهم ودريتَ هذه الدراية اتق الله عَزَّ وَجَلَّ واحفظ توحيدك وصن إيمانك وابعد نفسك عن الشرك، واسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يثبتك علىٰ التوحيد وأن يعيذك من الشرك وأن يحييك مسلما وأن يتوفاك مؤمنا.

فإنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحده ولي التوفيق والسداد.

(1) رواه مسلم (2812)، من حديث جابر بن عبد الله.

القاعدة الرابعة:

المتن: - القاعدة الرابعة-

أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ؛ لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانِنَا شِرْكُهُمْ دَائِمٌ؛ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّة.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:65].

تَمَّتْ وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

الشــرح:

ثم ختم هذه القواعد الأربع بهذه القاعدة العظيمة، المهمة- حقيقة- وهي قوله -رحمه الله- «أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ»، لماذا؟ قال: «لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ»، ما معنىٰ يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة؟ أي وقت الصحة والعافية والأمن والراحة والطمأنينة -ونحو ذلك- يشركون، يعبدون مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الأشجار والأحجار والملائكة...الخ، أما وقت الشدة عندما تشتد الأمور وتعظم الكربات لا يعبدون شيئا من تلك المعبودات، بل يتوجهون إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحده مخلصين له الدين، هكذا كانوا.

ما الدليل علىٰ ذلك؟ قال: « وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[1]»، هذه حالهم، من هم؟ المشركون الأُوَّل.

إذا ركبوا في الفلك وأتت الرياح العاتية وتلاطمت الأمواج وأدركهم الغرق وعظم فيهم الخطب أخلصوا الدين لله، فقط يقولون: يا رب.. يا رب، لا يناجون اللات ولا هبل ولا غيرها مما

(1) الآية رقم: 65 من سورة العنكبوت.

كانوا يدعونها في حال الرخاء، فقط يقولون: يا رب.. يا رب، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ إخلاصٌ تامٌ في التوجه والسؤال والطلب، الوسائط كلها تسقط وتذهب ولا يتعلقون بشيء منها، يُخلصون الدين لله، والدليل واضح أمامك: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا﴾ -أي المشركين- ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ يعني إذا انتهوا من البحر ومشاكل الغرق وكانوا في البَر، وطأت أقدامهم البر، رجعوا للشرك، بدؤوا ينادون اللاّت والعزىٰ... الخ وفي حال الشدة يُخلصون لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ولهذا؛ اقرأ في هذا السياق بيان الله عَزَّ وَجَلَّ لهؤلاء أن الله قادر عليهم في حال كونهم في البحر وفي حال كونهم في البر، الأمر سواء في قدرته جَلَّ وَعَلَا، قادر علىٰ إهلاكهم بَرًّا وبحرًا، لا فرق بين أن يدرك الإنسان هلاك الله عَزَّ وَجَلَّ سواء كان في البر أو البحر، فيقال للمشرك: إذا كنت تؤمن أنه لا ينجيك في البحر إلا الله، فكذلك لا ينجيك في البر إلا الله، لأن الله قادر عليك في البر و في البحر، فماذا تغني عنك هذه الأصنام من الله شيئا سواء كنت في البر أو في البحر.

ولهذا اقرأ قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ) -هذه بيان حال المشركين- (فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا﴾[1]؛

قوله: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ أي ذهب كل من تتعلقون به وتدعونه وترجونه، ﴿إِلاَّ إِيَّاهُ﴾: إلا الله. وانتبه للآية ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾: تدل هذه الآية علىٰ أن المشركين كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره، لكنهم في البحر كل من يعبدونه من دون الله يذهب عن قلوبهم وعن أفكارهم وعن توجهاتهم، فلا يعبدون إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحده مخلصين له الدين.

﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا)- انتبه-(أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾[2]، الآن وطئت أقدامكم البر وأحسستم بالسلامة والنجاة من كربات وشدة البحر

(1) الآيات: (66 -67) من سورة الإسراء.

(2) الآية رقم: 68 من سورة الإسراء.

ورجعتم إلىٰ الشرك، هل عندما رجعتم إلىٰ الشرك بعد أن وطئت أقدامكم البر، وأحسستم بالسلامة، هل أمنتم أن يخسف الله بكم جانب البر؟ هل تأمنون من ذلك؟ إذن لماذا تعودون إلىٰ الشرك؟ أمر آخر: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، هل تأمنون من ذلك؟

أي وأنتم في البر فيه احتمالين؛ الأول: أن يخسف الله بكم جانب البر، الأرض التي تحتكم تنخسف، وتسقطون في هوة من الأرض لا يعلم مداها إلا الله، وتنطبق عليكم الأرض، ولا يُرىٰ لكم أثر ولا شيء، الله قادر علىٰ كل شيء، وقد أخبر أنه عاقب من عاقب بشيء من ذلك ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾[1]، هل تأمنون من ذلك؟ هذا جانب. جانب آخر أو احتمال آخر: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي وأنتم في البر هل تأمنون أن الله عَزَّ وَجَلَّ يبعث ريح شديدة قوية تحمل الحصباء فيهلككم وأنتم في البر؟ هذا احتمال ثاني ضعوه في بالكم. أيضا احتمال ثالث ذكره الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ -أي في البحر- ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾[2].

هذه احتمالات ثلاث ذكرها الله لهم:

- يُحتمل أن تأتيكم العقوبة في البر خسفًا.
- ويُحتمل أن تأتيكم العقوبة في البر ريحًا عاصفة تحمل الحصباء تهلككم.
- ويحتمل أن يعيدكم الله عَزَّ وَجَلَّ فيما بعد إلىٰ البحر في حاجة من حاجاتكم وطلب من طلباتكم ويرسل عليكم وأنتم في البحر خاسفًا من الريح فيغرقكم بما كفرتم.

إذن من تُخلصون له في الشدة وتشركون معه في الرخاء حقه والواجب عليكم أن تكونوا مُخلصين له في الرخاء والشدة، لأنكم لستم في أَمَنة من عقوبته ونقمته، لا في البر ولا في البحر. فكان المشركون الأُوَّل يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة.

---

(1) الآية رقم: 40 من سورة العنكبوت.

(2) الآية رقم: 69 من سورة الإسراء.

وعرضت لذهني الآن أن أحد المشركين كان سبب دخوله في الإسلام والتحاقه بالنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ هو مثل هذه القصة؛ كانوا في البحر وأدركهم الغرق وعاينوا الموت فأخلص الناس في ذلك الموقف لله فقال -وهو عكرمة بن أبي جهل-: لئن كان لا يخلِّصني من هذا الكرب في هذا المكان إلا الله فلا يخلِّصني منه في البر إلا الله، ثم قال: حقٌّ عليَّ لئن كتب الله لي نجاة لأذهبن إلىٰ محمد و لأبايعنَّه علىٰ الإسلام، نجاه الله وفعل ذلك وأسلم[1]، فكانت هذه عظة له وعبرة في دخوله في الإسلام ورجوعه للدين.

إذن أولئك كانوا يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، ويقول المصنف -رحمه الله- أما المشركون في زماننا فحالهم أنهم يشركون في الرخاء وفي الشدة. ما معنىٰ يشركون في الشدة؟ أي أن حالهم عندما يركبون في الفلك ويعاينون شدة الغرق ومقاربة الموت يفزعون إلىٰ المعبودات التي تعلقت قلوبهم بها، ففي مثل هذه الحال تراهم يقولون: مدَد يا فلان، أدركنا يا فلان، إن لم تلحقنا في هذا من يلحقنا؟ إن لم تنقذنا من هذا الغرق، من الذي ينقذنا؟ يخاطبون أموات! يخاطبون مقبورين! أنا عائذ بك، أنا ملتجئ إليك، أنا في جنابك... الخ، في الشدة يفعلون ذلك، وهذا شرك ما كان المشركون يفعلونه في حال الشدة، في الشدة كانوا يخلصون.

قرأت في بعض الكتب أن جماعة كانوا في سفينة وأدركهم الغرق، فأخذ كلٌّ يهتف بمعبوده: مدد يا فلان، ألحقنا يا شيخ فلان، أدركنا يا فلان.. وينادون، كلٌّ ينادي شيخه أو معبوده. فكان فيهم رجل علىٰ الفطرة، رجل مسن، التفت فإذا كل من علىٰ السفينة لا ينادون إلا هذه المعبودات، ليس فيهم من ينادي الله، فمدَّ يديه وقال: يارب! أغرق.. أغرق ما علىٰ السفينة من يعبدك، كل من علىٰ السفينة متجهين إلىٰ غيرك.

(1) القصة ذكرها الحافظ بن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (69)﴾.

قد تتساءل -أيها الأخ الكريم- تقول: لماذا هؤلاء يشركون في الرخاء وفي الشدة؟ ما السبب؟ يأتيك سؤال: لماذا هؤلاء يشركون في الرخاء وفي الشدة؟

أقول لك إن من وراء ذلك أئمة الضلال وشيوخ الباطل؛ أئمة الضلال وشيوخ الباطل غرسوا في نفوس هؤلاء التعلق بهم وقالوا لهم -كما هو واضح في كتب هؤلاء- قالوا لهم: إذا أدركتَ الكربة وعاينتَ الشدة في أي مكان تكون اهتف باسمي، اهتف باسمي ستراني بجنبك آخذ بيدك، حتىٰ بعد موتي لا تنسوا، حتىٰ بعد موتي تنادي باسمي أخرج إليك وآخذ بيدك. كتب هؤلاء يعددون من كراماتهم، يقولون أنه من كراماتهم أنه كان ينقذ السفن في البحر من الغرق، ينادون باسمه فينقذ السفن في البحر. حتىٰ في أحد الكتب المشهورة في بيان طبقات هؤلاء- شيوخ الضلال- ذكروا أن واحدا منهم -يعددون شيئا من كراماته- أنه كان -والعياذ بالله- يمسك ويُطلب أن تُمسك له الحمارة ليمارس معها الممارسة الباطلة، ثم بعضهم قال له في ذلك لماذا هذه الممارسة؟ قال: هذه كرامة، رتقتُ بهذا العمل خرق سفينة كان يغرق أهلها في البحر. والعوام يسمعون مثل هذه القصص ويصدقونها وترسخ في قلوبهم، ثم إذا ركبوا في الفلك يغلظ شركهم علىٰ شرك المشركين الأُوَّل، فتجده إلىٰ أن يغرق، إلىٰ أن يموت، وهو ينادي شيخه ويهتف باسم شيخه إلىٰ أن يغرق -والعياذ بالله- علىٰ الشرك بالله -نسأل الله العافية والسلامة-. والله إنها حال مؤلمة جدا ومؤسفة، تجد المسكين يغرق ويموت وهو يهتف باسم شيخه إلىٰ أن تفارق روحه الحياة وهو لا يزال يظن أن شيخه الآن يأتي، الآن يدركه، الآن ينقذه، وهو ينادي باسمه... ينادي باسمه إلىٰ أن يغرق، لا يقول يا الله، يموت مشركا، لا يعبد الله ولا يخلص لله حتىٰ في شدته.

فذكر- رحمة الله عليه- أن شرك المشركين أغلظ من شرك أولئك، من جهة أن أولئك كانوا يشركون في الرخاء ولا يشركون في الشدة، وأن هؤلاء يشركون في الرخاء -والعياذ بالله- وفي الشدة، شركًا أغلظ من شرك المشركين الأوائل.

وهذه المسائل والتوسع فيها والرد علىٰ الشُّبه التي يطرحها أهل الشرك والباطل توسع فيها- رحمه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في كتابٍ له معروف، اسمه: «كشف الشبهات»[1] كتاب مهم جدا، لا يستغني عنه طالب العلم، وذكر فيه هذه القواعد مفصلة تفصيلاً أوسع من هنا، و ذكر أيضا أصول أخرىٰ، وذكر أيضا تقعيدات وتأصيلات يحتاج إليها طالب العلم في كشف شبهات أهل الشرك والباطل، ثم بعد ذلك ذكر شبهات تفصيلية يستدل بها هؤلاء في كتابه العظيم المبارك الذي سماه- رحمه الله-: «كشف الشبهات».

فنسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجزي هذا الإمام خير الجزاء علىٰ هذا النصح العظيم، والبيان الموفق والإيضاح للتوحيد والتحذير من الشرك الذي كان هو شغله الشاغل- رحمة الله عليه- في حياته، فنفع الله عَزَّ وَجَلَّ بدعوته نفعًا عظيمًا، ولا يزال الناس مع مر الأيام يستفيدون من هذه الدعوة، ويستفيدون من هذا النصح، ويستفيدون من هذه الآيات والحجج والبيِّانات التي جمعها -رحمه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- فأفاد من ذلك خلق، واهتدىٰ خلق كتب الله عَزَّ وَجَلَّ لهم الهداية.

وختم- رحمه الله تعالىٰ- الرسالة بقوله: « تَمَّتْ وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ». ويوجد في بعض المجتمعات من يصدون الناس عن دعوته، حتىٰ إن بعضهم قيل له -كما ذكر لنا بعضهم ذلك- قيل له في التحذير من الشيخ محمد بن عبد الوهاب- رحمه الله- هو لا يصلي علىٰ النبي، ويأتي خائف مسكين، من يريد أن يسمع لشخص لا يصلي علىٰ النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ،

---

(1) يقول الشيخ عبد المحسن العبَّاد -حفظه الله- في كتابه: «منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف»، معرِّفا بكتاب «كشف الشبهات»: ((اسم الكتاب مطابقٌ لموضوعه؛ فالشيخ رَحِمَهُ اللهُ أورَد فيه الشُّبهات التي ذكَرها أهل البدع، مُلبِّسين بها علىٰ الدعوة إلىٰ الحقِّ والصِّراط المستقيم، ومخالفين فيها لما كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة ومن سار علىٰ نَهجِهم، وذلك بتعلقهم بالأولياء والصَّالحين، وجعلهم وسائط بينهم وبين الله، يدعونهم ويستغيثون بهم، فجمع الشيخ : جملًا كبيرةً من هذه= الشُّبه، فيذكر الشُّبهة ثم يذكر الجواب عليها، مستدلًا علىٰ ذلك بنصوص الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمَّة. وكتابه هذا متمِّمٌ لكتبه الأخرىٰ في العقيدة، التي أوضح فيها ما يجب اعتقاده وفقا لنصوص الكتاب والسنة، فإنه بهذا الكتاب أجاب علىٰ ما يورد علىٰ العقيدة الصحيحة من شبهات، مُبيِّنًا بطلانها ومخالفتها للحقِّ والهدىٰ الذي كان عليه سلف هذه الأمَّة)) اهـ.

فيأتي خائف ويسد أذنيه ويحذر غاية الحذر، لأنه لا يمكن أن يسمع لشخص لا يصلي علىٰ النبي - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ-.

ختم- رحمه الله- هذه الرسالة المباركة بقوله: « تَمَّتْ وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ».

فجزاه الله خيرًا علىٰ ما قدَّم وأعلىٰ درجاته ورفع موازينه في عليين، وجمعنا به أجمعين وبالصالحين من عباده وبأنبيائه وأوليائه في جنات النعيم، وهدانا صراطه المستقيم، وأصلح لنا جميعا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا جميعا دنيانا التي فيها معاشنا وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، ونسأله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير والموت راحة لنا من كل شر، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

وأختم بتذكيرٍ بأمرٍ سبق أن ذكّرت به، ألا وهو: أن الهدية نافعة جدا، وهي من أعظم أسباب جلب المحبة والمودة، وكثيرٌ من الحجاج يحرصون جدًّا علىٰ أمر الهدية.

فأنبه الجميع: لا تنسىٰ وأنت تحرص علىٰ شراء الهدايا أن تشتري لقرابتك أثمن هدية، ألا وهي **كتب التوحيد**، التي تُعلِّم الناس التوحيد الذي خُلقوا لأجله وأُوجدوا لتحقيقه.

أسأل الله أن يهدينا وأن يهدي بنا وأن يهدي لنا، وأن يجعلنا من عباده المهتدين.

وصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمْ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدْ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينْ.

الفهـــــرس:

((الفهرس بروابط داخلية))

الحمد لله رب العالمين

مكتبة شبكة الإمام الآجري

www.ajurry.com

جمادى الثانية ١٤٣٣